عُلَمَاءُ زُعَمَاءُ

علماء زعماء

الكاتب: مصطفى محمود زكي

إخراج فني: الباشا عبدالباسط

رقم الإيداع: 25042 / 2019

الترقيم الدولي: 978 - 977 - 844 - 081 - 2

دار الزيات للنشر والتوزيع **:Facebook Page**

E_mail: bentelzayat1@gmail.com

Website: www.bentelzayat.tk

مجلس الإدارة / د. شاهندة الزيات

المدير العام/ أ. محمود محروس إبراهيم

01066736765 - 01011122429

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

لدار الزيات المشهرة قانونًا بسجلّ تجاريّ رقم / 49351

عُلماءُ زُعَماءُ

الكاتِب

مُصطفى محمود زكي

إهداء

إلى التي أحنت ظهرها لنستقيم، إلى التي أحرقت حياتها لننعم، إلى التي أظمأت نهارها لنسعد وأيقظت ليلها لنغفو، إلى التي نشتاق للجلوس بين يديها وتقبيل قدميها، إليك يا أمي أهدي هذا الكتاب والله أسأل أن يكون لكِ ذخرًا يوم القيامة، وأن يرحمك وينزل على قبرك الرحمات... اللهم آمين.

❋ ❋ ❋

مقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله المستكملين الشرفا، ثم أما بعد: فإن الحديث عن العلماء شرف كبير؛ إذ نستشعر أننا في رحاب العلم والقربة من الله، والعلمُ وطريق العلمِ قد رفعه الله درجات، وجعل من يسلكه كأنما يسلك طريقًا إلى الجنة، فعن كثير بن قيس قال: (كنت جالسًا مع أبي الدرداء - رضي الله عنه- في مسجد دمشق فأتاه رجل فقال: يا أبا الدرداء، إني أتيتك من مدينة الرسول في حديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ فقال أبو الدرداء: أما جئت لحاجة؟ أما جئت لتجارة؟ أما جئت إلا لهذا الحديث؟ قال: نعم، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقًا من طرق الجنة، والملائكة تضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإنَّ العالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، والحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة

البدر على سائر الكواكب، وإنَّ العلماء ورثة الأنبياء، إنَّ الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وأورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»، وقد علق ابن القيم – رحمه الله تعالى– على قوله: (إنَّ العلماء ورثة الأنبياء) بقوله أن ذلك من أعظم المناقب لأهل العلم، وذلك لأن الأنبياء– عليهم الصلاة والسلام– خير خلق الله، فورثتهم خير الخلق بعدهم، فالعلماء أحق الناس بميراث الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام– حتى يقوموا بتبليغ هذا الدين للناس كافة، ويقول سفيان بن عيينة – رحمه الله تعالى: (أرفع الناس عند الله منزلة من كان بين الله وبين عباده، وهم الأنبياء والعلماء).

وإنه لا يخفى على كل مسلم ما للعلم من فضل، وما للعلماء من منزلة، وإنَّ هذه المنزلة من أسمى المنازل وأعلاها، ويدل على ذلك شواهد في الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ فالله عز وجل لم يجعل مكانة العالم وغير العالم واحدة بل رفع مكانة العلماء وجعلها عالية، ففي قوله

تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فكما قال الإمام ابن جماعة - رحمه الله تعالى- معلقًا على هذه الآية: (بدأ سبحانه بنفسه وثنَّى بملائكته وثلَّث بأهل العلم، وكفاهم ذلك شرفًا وفضلًا وجلالةً ونبلًا)، فكل هذا يدل على مكانة العلم والعلماء، ويكفي أن أول الآيات التي نزلت من الوحي كانت (اقرأ) فأي شرف هذا الذي يناله من ارتقى في هذا السلم الرفيع ذي المقام العالي.

وفي هذا الكتاب سنخوض رحلة مع علماء من بقاع شتى، ولكنهم اجتمعوا على كلمة التوحيد ونشرها في شتى بقاع الدنيا، اختلفت جنسياتهم ولكن جمعهم الإسلام، وهؤلاء العلماء بذلوا من الجهود الكثير، وتركوا بصمة كبيرة لا تُنسى في تاريخ الأمة الإسلامية، كم نحتاجها الآن لنُذَكِّرَ بها الشباب ليرتقي في سلم العلم، وليعرف قيمة العلماء، وكم بذلوا وضحوا بالغالي والنفيس لأجل نشر كلمة الله

وجعلها هي العليا، بل ولأخذ هؤلاء قدوة بدلًا من تلك الشخصيات التي تُصدَّر لنا جهارًا نهارًا، وطيلة الوقت وما تصلح لأن تكون حدوة حتى لخيل يسعى ليكون في حرب تحرير القدس، فما بالنا بشباب ورجال ونساء يحتاجون أن يكونوا في سلم العلم الذي به تُحرر العقول قبل البلدان.

مصطفى محمود زكي

❋ ❋ ❋

أحمد بن حنبل

هو الإمام حقًّا، وشيخ الإسلام صدقًا، أبو عبد الله، أحمد بن محمد بن حنبل[1]، ناصر السنة وإمام المحنة، شيخ من شيوخ الإسلام وقامة عالية يصدق عليه القول (أنت الجماعة ولو كنت وحدك)، طلب العلم وهو ابن خمس عشرة سنة[2]، في العام الذي مات فيه الإمام مالك، وحماد بن زيد، وقد حدثّ وسمعَ عن كثيرٍ من أعلامِ الأمة.[3]

---

(1) أبو عبد الله، أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حيان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل الذهلي الشيباني المروزي ثم البغدادي، أحد الأئمة الأعلام. هكذا ساق نسبه ولده عبد الله، واعتمده أبو بكر الخطيب في "تاريخه" وغيره.

(2) وُلد عام 164 هـ وبدأ تلقي العلم عام 1179.

(3) فسمع من إبراهيم بن سعد قليلًا، ومن هشيم بن بشير فأكثر، وجود، ومن عباد بن عباد المهلبي، ومعتمر بن سليمان التيمي، وسفيان بن عيينة الهلالي، وأيوب بن النجار، ويحيى بن أبي زائدة، وعلي بن هاشم بن البريد وقران بن تمام، وعمار بن محمد الثوري، والقاضي أبي يوسف، وجابر بن نوح الحماني، وعلي بن غراب القاضي، وعمر بن

عبيد الطنافسي، وأخويه يعلى، ومحمد، والمطلب بن زياد، ويوسف بن الماجشون، وجرير بن عبد الحميد، وخالد بن الحارث، وبشر بن المفضل، وعباد بن العوام، وأبي بكر بن عياش، ومحمد بن عبد الرحمن الطفاوي، وعبد العزيز بن عبد الصمد العمي، وعبدة بن سليمان، ويحيى بن عبد الملك بن أبي غنية، والنضر بن إسماعيل البجلي، وأبي خالد الأحمر، وعلي بن ثابت الجزري، وأبي عبيدة الحداد، وعبيدة بن حميد الحذاء، ومحمد بن سلمة الحراني، وأبي معاوية الضرير، وعبد الله بن إدريس، ومروان بن معاوية، وغندر، وابن علية، ومخلد بن يزيد الحراني، وحفص بن غياث، وعبد الوهاب الثقفي، ومحمد بن فضيل، وعبد الرحمن بن محمد المحاربي، والوليد بن مسلم، ويحيى بن سليم حديثًا واحدًا، ومحمد بن يزيد الواسطي، ومحمد بن الحسن المزني الواسطي، ويزيد بن هارون، وعلي بن عاصم، وشعيب بن حرب، ووكيع فأكثر، ويحيى القطان فبالغ، ومسكين بن بكير، وأنس بن عياض الليثي، وإسحاق الأزرق، ومعاذ بن هشام، وعبد الأعلى السامي، ومحمد بن أبي عدي، وعبد الرحمن بن مهدي، وعبد الله بن نمير، ومحمد بن بشر، وزيد بن الحباب، وعبد الله بن بكر، ومحمد بن إدريس الشافعي، وأبي عاصم، وعبد الرزاق، وأبي نعيم، وعفان، وحسين بن علي الجعفي، وأبي النضر، ويحيى بن آدم، وأبي عبد الرحمن المقرئ، وحجاج بن محمد، وأبي عامر العقدي، وعبد الصمد بن عبد الوارث، وروح بن عبادة، وأسود بن عامر، ووهب بن جرير، ويونس بن محمد، وسليمان بن حرب، ويعقوب بن إبراهيم بن سعد، وخلائق إلى أن ينزل في الرواية عن قتيبة بن سعيد، وعلي بن المديني، وأبي بكر بن أبي شيبة، وهارون بن معروف، وجماعة من أقرانه، فعدة شيوخه الذين روى عنهم في "المسند" مائتا وثمانون ونيف.

وقفة

من الأمورِ العجيبةِ التي لحظتها في كثيرٍ من المواقف عبر التاريخ، وذلك عندما تشتد الأزمات على الأمة الإسلامية سواء بحوادث الزمان، أو بموت عالم من العلماء تأثر به الناس فيكون في هذا العام مولد أحد قامات الأمة من جديد سواء مجدد مثل الإمام أحمد، أو حاكم ينتصر لدين الله، أو يكون سببًا من الأسباب الرئيسية لنصرة لدين الله وهزيمة أعداء الأمة مثل عثمان بن أرطغرل، ففي العام الذي هُدمت فيه الخلافة العباسية ودخل التتار البلاد الإسلامية وُلد عثمان بن أرطغرل، الذي كان له فضل كبير في تأسيس دولة عظيمة عُرفت في التاريخ باسمه، وكان لها فضل كبير في نشر دين الله تعالى في ربوع أوروبا، وكذلك الانتصار على الصليبيين في كثير من المواطن، ناهيك عن فتح القسطنطينية، وكذلك لتكون هذه الدولة حجر عثرة في حلق كل من أراد أن يعبث بمقدرات الأمة لفترة طويلة عبر الزمن حتى تمكَّن منها الضعف.

فهكذا كان الحال مع الإمام أحمد بن حنبل، فبعد وفاة الإمام مالك – رحمه الله– وُلد هذا الإمام العظيم، ليكون امتدادًا لهذا العالم، وليكون

ناصرًا لدين الله وثابتًا في موقفه كما سنرى في محنة تُعد من أشد المحن على الأمة الإسلامية كاملة، والتي عُرفت في التاريخ باسم محنة خلق القرآن.

والوقفة الثانية التي أريد أن أقف عندها هي تلقيه العلم، فقد تلقى العلم – رحمه الله– وهو ابن خمس عشرة سنة أي ليس من صغره كعادة الكثيرين من أهل العلم، وهذا الأمر أردت أن أوضّحه وأقف عليه بشدة؛ لأن كثيرين من الشباب عندما يكبر في السن يقول: "لقد ضاعت الفرصة وفاتني قطار العلم ولن أستطيع أن أحصِّلَ أمرًا أو أصل في طريق العلم لأي مرتبة"، فكما نرى في قصة الإمام قد بدأ في سن الخامسة عشر، وكما سنرى في حياة غيره من العلماء، وهذه إشارة لشباب الأمة حتى تفهم أن هذا هو الطريق الذي يجب أن نسلكه.

تنشئة الإمام أحمد - رحمه الله- مع أمه

تُوفي أبوه محمد في الثلاثين من عمره دون أن يعرفه ابنه، وكان قائدًا لإحدى كتائب الجيش العباسي، وجدّه حنبل كان واليًا على سرخس من إقليم خرسان وكان له حظ من العلم، بالإضافة إلى أعمامه وأخواله

فلهم أمجاد، وقد ترعرع بين ظهرانيهم وتحت رعايتهم، ولكن الذي رباه حقًّا وأخرج منه عالمًا كانت أمه - رحمها الله- "صفية بنت شيبان"، والتي تحمّلت تبعات تربيته وتنشئته الإسلامية الخالصة وسط هذا الزخم الكبير، عازفة عن الزواج وزخارفه، مقبلة على تربية ابنها، ولقد حرصت - رحمها الله- على تعليمه الأدب واللغة، وحفظّته القرآن على وجه الخصوص، كما علّمته الحديث والآثار منذ نعومة أظافره، وعلّمته الفارسية، التي كانت تعرفها زمن إقامتها بمرو من إقليم خرسان، وحدّثته عن أمجاد العرب ومآثرهم وأيامهم وروته الأشعار، وخاصة مآثر وأيام قبيلة شيبان العدنانية التي تلتقي مع النبي ﷺ في نزار بن معد بن عدنان، كما علمته وروته أخبار السير والصحابة وآثارهم وخاصة الخلفاء الراشدين، وربطت العلاقة الوثيقة بينه وبين علماء بغداد ومحدثيها ومؤدبيها، حيث حفظ القرآن غلامًا وأخذ عنهم كنوز السنة والسير والمغازي[1]، وزرعت في نفسه منذ الصبا الباكر حب العفة

(1) قد كان الصحابة ـ رضوان الله عليهمـ يقدِّرون للسيرة النبوية قدرها، ويتواصون بتعلمها وتعليمها لأبنائهم، فكان علي بن الحسين ـ رضي الله عنه ـ يقول: "كنا نُعلَّم مغازي

والزهد، وذلك بعفتها وتقواها وزهدها حتى في الحلال كالتزوج بعد أن ترملت ورغب فيها الخُطَّاب[1].

ولا بد أن تكون لنا وقفة مع هذه التربية وتلك التنشئة، وهذا الدور العظيم الذي فعلته تلك الأم المربية الفاضلة والتي نتمنى أن نجد عشر معشارها في نساء الأمة الآن اللاتي انشغلن عن تربية الأبناء بمشاهدة التلفاز ومتابعة الحلقات من المسلسلات والأفلام والدراما الشيقة، بل ومتابعة آخر فنون الموضة وآخر إصدارات عالم الزينة، فالأم - كما يقول عنها الشاعر- مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبًا طيب الأعراقِ، وهذا مثال واضح وصريح على هذا القول، فعندما تواجدت أم فاضلة عاقلة مربية فإنها أخرجت عالمًا مثل الإمام أحمد، فستجد في تربيتها له أنها

النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما نعلم السورة من القرآن".

وكان الزهري يقول: "علم المغازي والسرايا علم الدنيا والآخرة". وقال إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ: "كان أبي يعلمنا المغازي ويعدها علينا ويقول: "يا بني هذه مآثر آبائكم فلا تضيعوها"".

(1) فقهاء مناضلون| محمد بن إبراهيم| ص 136 وما بعدها.

بدأت بتعليمه العقيدة الصحيحة والزهد الذي شاهده فيها فتأثر به وسار فيه سليقة وخصلة أساسية يسير بها، ثم علَّمته ما تعرفه من العلم كالفارسية وغير ذلك مما علّمته إياه، ثم ربطت به وبين العلماء ليتعلم العلم على أيديهم ومن منابعه الصحيحة، فهكذا يجب أن تتربى النساء أولًا لتربي الأبناء ليخرجوا جيلًا نفتخر به لأنه حتما سيكون من بينه العلماء والأدباء والشعراء والعباقرة في شتى العلوم، ولكن إذا استمرت النساء على ما هي عليه الآن فلنصل على الأمةِ أربع تكبيرات، وأريد أن أختتم هذه الوقفة بكلمة مهمة عبارة عن حدث قد وقع إبان الاحتلال الإنجليزي بمصر، فعندما خرجت النساء في ميدان التحرير ورفعن النقاب وبدأن بعد ذلك بالخروج إلى سوق العمل، كانت الفرحة عارمة في أوروبا، ولدى المبشرين أمثال زويمر، وكذلك لدى اللورد كرومر، والذي كان يرسخ لوجود الإنجليز أبد الدهر في مصر، إذ أنهم يعلمون أنه إذ خرجت المرأة وتمت السيطرة على فكرها وتعرت - مثلما نرى الآن- فسوف تُخرجُ جيلًا لا يعرف شيئًا عن دينه وعقيدته الصحيحة، خلاصة القول "إن مفتاح النصر يكمن في تربية النساء".

سعة حفظ الإمام أحمد

كان حافظًا – رحمه الله– لدرجة شديدة، فقد قال عبد الله بن أحمد: قال لي أبو زرعة: أبوك يحفظ ألفَ ألفِ حديث، فقيل له: وما يدريك؟ قال: ذاكرتُه، فأخذتُ عليه الأبواب[1]".

قال عبد الله بن أحمد: قال لي أبي: خذ أي كتاب شئت من كتب وكيع من المصنف، فإن شئت أن تسألني عن الكلام حتى أخبرك بالإسناد، وإن شئت بالإسناد حتى أخبرك أنا بالكلام[2]، وقال عليُّ بن المديني: ليس في أصحابنا أحفظ من أحمد، وبلغني أنه لا يحدِّث إلا من كتاب، ولنا فيه أسوة[3]، وقال أبو زرعة: حزرت كتب أحمد يوم مات، فبلغت اثنى عشر حملًا وعدلًا، ما كان على ظهر كتاب منها: حديث

(1) وقال الإمام الذهبي: هذه حكاية صحيحةٌ في سَعة علم أبي عبد الله، وكانوا يعُدُّون في ذلك المكرَّر، والأثر، وفتوى التابعي، وما فسر، ونحو ذلك، راجع سير أعلام النبلاء للذهبي جـ 11 صـ 187.

(2) سير أعلام النبلاء للذهبي جـ 11 صـ 186.

(3) سير أعلام النبلاء للذهبي جـ 11 صـ 200.

فلان، ولا في بطنه: حدثنا فلان، كل ذلك كان يحفظه[1]، وقال عبد الله بن أحمد: كتب أبي عن القاضي أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني (صاحبا أبي حنيفة) الكتب، وكان يحفظها.[2]

مؤلَّفات الإمام أحمد

كان للإمام أحمد عدد من المؤلفات ككتاب العلل، وكتاب الناسخ والمنسوخ، وكتاب الزهد، وكتاب المسائل، وكتاب الفضائل، وكتاب الفرائض، وكتاب المناسك، وكتاب الإيمان، وكتاب الأشربة، وكتاب طاعة الرسول، وكتاب الرد على الجهمية، والمسنَد[3].

ذكاء الإمام وواقعيته في الفتوى وإصدار الأحكام

سئل ذات مرة الإمام أحمد عن رجلين يكونان أميرين في الغزو، أحدهما قوي فاجر، والآخر صالح ضعيف، مع أيهما يغزو؟

---

(1) سير أعلام النبلاء للذهبي جـ 11 صـ 187.

(10) سير أعلام النبلاء للذهبي جـ 11 صـ 306.

(3) لفهرست لابن النديم صـ 281.

فأجاب قائلًا: "أما الفاجر القوي فقوته للمسلمين، وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين، فيغزو مع القوي الفاجر".

ولا بد أن نرى في هذه الفتوى كم الواقعية التي بها، فهو لا يفتي بعاطفة ولكن بذكاء وواقعية، ولنقس على هذه الفتوى منهج الإمام أحمد رحمه الله، فهو ليس كغيره ممن يفتي دون النظر إلى واقع الأمور وما يترتب على فتواه من أمور وخلل، بل يفتي بقول الحق ولكن بعلم ورؤية للواقع دون الخروج عما يقره شرع الله تعالى، فرحم الله الإمام أحمد ورزقنا الله ممن هم مثله.

فتنة خلق القرآن

وبعد هذه النبذات الصغيرة في حياة الإمام أحمد - رحمه الله- والتي لو تكلمنا فيها لن يكفي لذلك مجلد على مجلدٍ، إذ في تربية العلماء أمثاله وقفات ووقفات، وفي علمه مؤلفات لن يستطيع كتابنا المتواضع هذا الوقوف مع صفحاتها، وفي فتواه الكثير من الكلام المفيد، وفي

أحداث حياته الكثير، ولكن أهم الأحداث التي حدثت في سيرة هذا الإمام كانت الفتنة التي خلدت اسمه في التاريخ والتي وقف فيها صامدًا زعيمًا شامخًا ناصرًا للسنة، إذ كانت فتنة خلق القرآن، وكي نفهم الأمر جيدًا لا بد أن نوضح الوضع منذ بدايته حتى تتجلى الصورة جيدًا، ذلك لأن هذه الفتنة قد طالت ثلاثة من خلفاء بني العباس كما سنرى بداية من المأمون، ثم المعتصم، ثم الواثق بالله، ولكن رأس هذه الفتنة كلها كان شخصية مهمة ذات مكانة علمية وهي شخصية أحمد بن أبي دؤاد.

الوضع العام إبان الفتنة

كان الوضع العام في الدولة في عهد المأمون مليئًا بالأحداث والاضطرابات والثورات والتمردات حتى بعد أن استقر الأمر له بعد مقتل أخيه الأمين، ولكن أبرز هذه التمردات كان تمرد بأبك الخرمي[1]

(1) ظهر بابك الخرمي سنة 201هـ في خلافة المأمون العباسي واستفحل أمره في خلافة المعتصم بالله، ومذهبه يعد المذهب الإباحي، الذي يقوم على إباحة كل المحرمات وشيوع الأموال

وهي شخصية خطيرة في التاريخ وله أثر كبير وخطير، وغير ذلك من الثورات وانقسام العرب والرغبة في الاستقلال وكذلك جنود الفرس والمطامع لديهم مما حدا بالمأمون من استجلاب جنود أتراك، وذلك عن طريق أخيه المعتصم مما كان له بالغ الأثر بعد ذلك من الانقسام لقسمين بالدولة تركي وعربي والجيش جيشين أتراكًا وعربًا.

هذا من جانب، ومن جانب آخر حيث الوضع الفكري والعقائدي للدولة، فقد كانت الدولة الإسلامية من أيام النبي ﷺ تواجه أي أفكار مخالفة لشرع الله ولا تسمح بانتشارها وكذلك استمر الأمر في عهد الصحابة رضوان الله عليهم، وحتى في عهد الدولة الأموية كذلك كانت تواجه أي أفكار مارقة تخالف العقيدة الإسلامية[1]، ولكن مع

والأعراض بين الناس دون ضابط ويعتبر مؤسس هذا المذهب هو 'مزدك' الفارسي والذي ظهر مذهبه وانتشر في عهد 'كسرى قباذ' الفارسي حتى أصبح المذهب الرسمي للدولة الساسانية خلفًا لمذهب زرادشت الفلسفي.

(1) ومما يذكر في ذلك ما قاله خلف بن خليفة: أُدعى رجل النبوة في زمن خالد بن عبد الله القسري، وعارض القرآن. فأتى به خالد، فقال له: ما تقول؟ قال: عارضت في القرآن ما يقول الله تعالى: "إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر" فقلت أنا ما

الفتوحات لبلاد الفرس والروم، الأمر الذي سمح بتسرب بعض هذه الأفكار، وكذلك في عهد الدولة العباسية التي كانت الدولة تواجه بكل شراسة وقوة، ولكن في عهد المأمون بدأ السماح بأمر جديد وهو المناظرات وفتح الباب لكل ذي فكر أن يدلي بدلوه، وأن يتحدث كل ذي معتقد بما يعتقد، ففتح الباب للفلاسفة وذوي الأفكار الفاسدة والاعتقادات المخالفة لشرع الله من التحدث بحرية، مثلما يُدعى الآن تحت شعار وستار حرية الفكر والرأي، فنجد كل ناعق يتحدث بما شاء وقتما شاء وكيفما أراد على دين الله وكتاب الله وسنة رسول الله وصحابته رضوان الله عليهم وعلماء الأمة، ليس طعنًا في شخصهم ولكن نيلًا من دين الله تعالى، فمن يطعن في البخاري ومسلم إنما يهدف من وراء ذلك تشكيك الأمة في دينها، ومن يطعن في رسول الله إنما يهدف للنيل من

هو أحسن من هذا: إنا أعطيناك الجماهر، فصل لربك وجاهر، ولا تطع كل ساحر وكافر. فأمر به خالد فضربت عنقه وصلب على خشبة. فمر به خلف بن خليفة الشاعر، وقال: إنا أعطيناك العمود، فصل لربك على عود، وأنا ضامن عنك ألا تعود، ويعد هذا المذهب أقرب إلى الشيوعية في أقصى صورها.

عقيدة المسلمين ومن يطعن في علماء الأمة إنما يريد تدمير الدين، فإذا تشككت الأمة في علمائها ومن جاء الدين عن طريقهم فبذلك أنت تهدم الدين كله والقرآن الكريم وكل ما جاء فيه، وصولًا لفصل المسلمين عن عقيدة الإسلام مثلما قال اللورد كرومر إن هدفنا ليس إدخال هذه الشعوب في المسيحية فهم لا يستحقون هذا الشرف إنما هدفنا إخراجهم من الإسلام، فهذا هو هدف أعداء الأمة، ولا بد أن نحذر من ذلك تمام الحذر.

وليس كلامنا أن نهدم حرية الرأي والفكر ولكن ليس السماح لكل ناعق لا يستطيع حتى أن يقرأ حرفًا من كتاب الله ثم يأتي ويدَّعي أن القرآن به تحريف، وكذلك من لا يستطيع أن يفرق بين المنصوب والمرفوع، ثم يأتي ويقول أنه مفكر وذو رأي، وكذلك أن يأتي جاهل حاقد على دين الله ثم يشكك فيما يذكره علماء الأمة كابن تيمية وابن القيم وغيرهما، فإن السماح لهؤلاء بالحديث إنما هو عين المفسدة، وللأسف الشديد يجدون منافذ إعلامية للحديث ومسامع قد تستجيب لهم من شباب غافل عن دينه ولا حول ولا قوة إلا بالله.

خلاصة القول إنه أتيحت الفرصة للأفكار الفاسدة من الظهور بجلاء في هذا العهد، وعلى رأس هذا الفكر كان الفكر المعتزلي ورأس الفتنة وزعيم المنهج المعتزلة أحمد بن أبي دؤاد، وحتى تتضح الصورة لا بد أن نقف قليلًا مع هذه الشخصية.

شخصية مؤجج الفتنة أحمد بن أبي دؤاد

إن أحمد بن أبي دؤاد إنما هو ليس بالجاهل أو الساعي وراء المناصب بالواسطة، أو من يتكلم بجهل ودون علم، ولكنه كان عالمًا، وإن كان ذا عقيدة بها خلل كبير يصل إلى الكفر أحيانًا، ولكنه كان نابغة وما بلغ من مرتبة عظيمة في عهد الدولة العباسية حتى كان مسيطرًا على الخلفاء سواء المأمون أو المعتصم، بل كانت كلمته قانونًا، وكان ذكيًا يستطيع تدبر الأمور بشكل رائع، وكان معروفًا بذلك، حتى أن المأمون هو الذي سعى للتقرب إليه وضمه إلى حاشيته حتى ولّاه القضاء ووصى به أخاه المعتصم، بل وكان راويًا حافظًا؛ إذ ذات مرة سأله المأمون عمن أسلم من الأنصار ليلة العقبة فعدّهم له جميعًا بأسمائهم وأنسابهم، أي خلاصة القول إنه أضله الله على علم.

فكرة خلق القرآن

كان الناس على منهج السلف يقولون: "إن الله جل وعلا يتكلم، وإن من صفاته سبحانه وتعالى الكلام، فيتكلم الله جل وعلا بما شاء كيف يشاء إذا شاء، كلامًا يليق بجلال الله وعظمته، ومن كلامه القرآن، تكلَّم الله سبحانه وتعالى به، وأوحاه إلى نبيه محمد ﷺ، فنزل به جبرائيل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال الله جل وعلا: **"وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ""**[1]، ثم نشأت فرقة يقال لها المعتزلة، فابتدعوا قولًا مخالفًا لعقيدة السلف الصالح، فزعموا أن الله لم يتكلم بالقرآن بل خلقه، وكان هذا الفكر متواجدًا ولكنه مستتر من قبل المأمون حتى أنه كان في عهد هارون الرشيد، ولكن الفرق هنا يكمن في كون هارون الرشيد على منهج السلف، وكان شديدًا عليهم، حتى إنه قال: "بلغني أن بشر بن غياث المريسي، زعم أن القرآن مخلوق، ولله عليّ إن أظفرني الله به لأقتلنه قِتلة ما قتلها أحد". كان بشرٌ الضال

(1) التوبة الآية 6.

هذا متواريًا أيام هارون نحوًا من عشرين سنة، حتى مات هارون الرشيد رحمه الله، ثم كان الأمر كذلك في زمن الأمين، ولكن حدث الانفتاح كما ذكرنا في عهد المأمون الذي أعجب بأحمد بن أبي دؤاد وقرب إليه المعتزلة حتى صار يفكر بفكرهم وبعقيدتهم وصار يخرج من وقت لآخر ببدع عجيبة منها:

إذ خرج المأمون على الناس في ربيع الأول عام 212هـ بالقول بخلق القرآن وكذلك بالقول بأن علي بن أبي طالب هو خير الناس بعد رسول الله بل قال في هذا شعرًا[1]، وكان قد أعلن من قبل براءة الذمة ممن ترحم على معاوية – رحمه الله– أو ذكره بخير أو ذكر فضائله، وإن كان قد رده عن ذلك وزيره يحيى بن أكثم، والملاحظ أن المذهب الثاني

(1) أصبحَ ديني الذي أدينُ بهِ ولَستُ منهُ الغداةَ مُعتَذِرا
حُبُّ عليٍّ بعدَ النبِيِّ ولا أشتُمُ صِدّيقًا ولا عُمَرا
ثم ابنِ عفانَ في الجنانِ معَ ال أبرارِ ذلك القتيل مُصطَبِرا
ألا ولا أشتُمُ الزُّبيرَ ولا طلحة إن قال قائلٌ غدَرا
وعائشٌ الأمُّ لستُ أشتُمُها من يفتريها فنحنُ مِنهُ بَرا.

أو البدعة الثانية هذه من أفكار الشيعة من المغالاة في سيدنا علي وكذلك البراءة من معاوية.[1]

بداية الفتنة

استطاع أحمد بن أبي دؤاد أن يقنع المأمون[2] بمعتقده الفاسد هذا وسيطر عليه تمام السيطرة، مما جعل المأمون يعلن عن اعتقاده بخلق القرآن في عام 211هـ فأنكر الناس ذلك، واضطربوا ولم ينل مقصوده، فهدأ الوضع بضع سنين ثم عزم المأمون بوصاية من ابن أبي دؤاد بفرض مذهبه الفاسد كرهًا وجبرًا عام 218هـ فأرسل إلى نائبه على بغداد إسحاق بن إبراهيم رسالة مفادها أن الخلفاء قد حمَّلهم الله أمانة هداية

(1) محمد إلهامي| رحلة الخلافة العباسية|ج1 ص 543.

(2) مما يروى عن المأمون أنه أتى بإنسان متنبئ فقال له: ألك علامة؟ قال: نعم، علامتي أني أعلم ما في نفسك. قال: قربت على ما في نفسي؟ قال له: في نفسك أني كذاب. قال: صدقت، وأمر به إلى الحبس. فأقام به أيامًا، ثم أخرجه. فقال: أوحى إليك بشيء؟ قال: لا. قال: ولم؟ قال: لأن الملائكة لا تدخل الحبس. فضحك المأمون وأطلقه، وكان يجب أن يقيم عليه حدًا حتى يكون عبرة لكل مدعى وكل ناعق.

الناس وحماية دينهم وحراسة الأمة من أفكار الضالين وقد تبين للخليفة بعد المطالعة والتأمل والتفكير في الأدلة أن القرآن مخلوق كسائر المخلوقات الأخرى وأن القول بأنه كلام الله غير مخلوق مناقض لدين الإسلام ويشبه اعتقاد النصارى في المسيح وهو ما أوقعهم في الشرك وعلى ذلك، فلتهاجم كل من يقول بغير ذلك، فبدأ ولي بغداد بحملة تسلط على العلماء والفقهاء والناس لفرض هذا المذهب الفاسد فمن لم يقل به عُزل من منصبه ومُنع راتبه من بيت المال، وإن كان مفتيًا مُنع الإفتاء، وإن كان صاحب درس مُنع التدريس، وإن كان محدثًا مُنع الرواية، بل جمع العلماء والفقهاء من بغداد لامتحانهم في هذا المعتقد فمنهم من استجاب، ومنهم من أجاب كارهًا مضطرًا، ومنهم من تحايل في الإجابة بحيل لفظية يخرج بها من هذا الموقف ولا يقع بها في الحرام، ومنهم من رفض وامتنع عن الاستجابة، وكان على رأس هؤلاء الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله.[1]

(1) المرجع السابق ص 548 وما بعدها بتصرف.

ثم تتطور الأحداث ويشتعل فتيل المعركة العقائدية، إذ كانت تُنشر أسماء العلماء الذين أقروا بخلق القرآن على الناس جميعًا كي يسهل إقناع العامة بهذا المذهب الفاسد، ثم تطور الأمر حين أرسل المأمون رسالة مفادها أن من بقي من العلماء وليس على مذهب خلق القرآن فليُعرض على امتحان أخير فإن استجاب له وإلا قتل، فاستجاب الجميع باستثناء أربعة علماء فقط، هم: أحمد بن حنبل، محمد بن نوح، والحسن بن حماد، عبيد الله بن عمر، فقيَّدهم استعدادًا لإرسالهم للقتل، ثم أعاد التحقيق معهم مرة أخرى فتراجع الحسن بن حماد ثم تراجع عبيد الله بن عمر، فلم يبق سوى أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح فقُيّدا استعدادًا لإرسالهما للمأمون للقتل، وكانت دعوة الإمام أحمد – رحمه الله– في ذلك الوقت ألا يجمع الله بينهما وبين المأمون وألا يرياه ولا يراهما، فسبحان الله استجاب الله تعالى لذلك، وكانت وفاة المأمون قبل أن يصل إليه أحد فأُعيد العالمان مرة أخرى إلى بغداد[1].

(1) الطبري| تاريخ الطبري\ج5 ص 190 وما بعدها.

في عهد المعتصم

يُعد المعتصم من أقوى خلفاء بني العباس[1]، ولكن يعيبه أنه لم يكن متعلمًا بل كان أقرب إلى الأمية، وقد بويع المعتصم بالخلافة بعد وفاة أخيه المأمون، واتخذ أحمد بن أبي دؤاد وزيرًا له عملًا بوصية أخيه، وأسلم له نفسه ومعتقده فاستمر بالعمل بفتنة خلق القرآن مرة أخرى بعد أن ظن الناس أنهم استراحوا بعد وفاة المأمون، ولكن الأمر الجلل الذي كان يغفل عنه الكثيرون هو رأس الفتنة، ذلك الوزير الذي يحرك الأمور من خلف الستار.

ولقد كان المعتصم مترددًا مع الإمام أحمد بشكل كبير، ولكنه نظرًا لجهله وقلة علمه لم يكن يفهم الأمر جيدًا بل كان يسير وفقًا لمعتقد أخيه

---

(1) كان معروفًا عليه القوة، إذا ذات يوم سمع امرأة تصرخ بأن صاحب هذه الخيمة أخذ ولدها فدخل عليه فأمره أن يعيد ولدها، وكان لا يعرف إن هذا قول حق للمرأة أم افتراء ولكن الرجل رفض فأمسكه المعتصم فما تركه إلا حين سمعت قعقعات عظامه بين يديه فتركه فسقط ميتا، وكذلك ما يؤكد قوته هذه أنه يُروى أنه كان يقول لوزيره ابن أبي دؤاد عض ساعدي فيقول له والله يا أمير المؤمنين ما تطيب نفسي بذلك، فيقول له يا أبا عبد الله إنه لا يضرني، فأروم بذلك، فإذا هو لا تعمل فيه الأسنة فضلا عن الأسنان.

وما يقوله له أحمد بن أبي دؤاد، ولكنه كان يراه شيخًا جليلًا ثابتًا رغم كل ما يتعرض له، ويسمع عنه فضائل عظيمة، حتى أن الشافعي – رحمه الله– قال فيه: "خرجت من بغداد وما خلّفت بها أحدًا أتقى ولا أورع ولا أفقه ولا أعلم من أحمد بن حنبل"[1]، ولذلك قرر أن يقوم بعمل مناظرة ليسمع فيها من الطرفين على الرغم من كونه لا يفقه شيئًا مما سوف يرى ويسمع لقلة علمه.

مناظرة كبرى

حُبس الإمام أحمد بن حنبل ووُضعت القيود في يديه ودخل على المعتصم الذي كان يظنه شابًا متهورًا لا يفقه ما يقول، فإذا به يجده شيخًا جليلًا في الخمسين من عمره وعليه وقار العلماء وثبات الزعماء الثابتين على الحق حتى أنه قال له: "لولا أنك كنت في يد من كان قبلي لم أتعرض إليك"، وجرت مناظرة عظيمة وقف فيها العالم بعلمه يفضح كل ما يقوله ابن أبي دؤاد ويفند حججه بالحجة والمنطق والعقل وكتاب الله

(1) الخطيب البغدادي| تاريخ بغداد| ج4 ص 419.

وسنة رسول الله، واستمرت المناظرة ثلاثة أيام والمعتصم يسمع كلامًا لا يفهمه، ويرى رجلا ثابتًا زاهدًا يفحمهم، حتى أنه قال له: "يا أحمد أجبني بخلق القرآن وأجعلك من خاصتي وممن يطأ بساطي"، فيقول الإمام: "يا أمير المؤمنين يأتوني بآية من كتاب الله أو سنة عن رسول الله حتى أجيبهم إليها".

فأي ثبات هذا الذي أنت فيه يا إمام! أي موقف هذا أن تخيّر بين الدنيا ونعيمها بقول كلمة واحدة وترفض هذا دفاعًا عن سنة رسول الله وعن دين الله، وحتى لا تفتن الناس بقولك! فو الله قد تراجعت العلماء حينها خوفًا على أنفسهم مضطرين، ولكنه لم يتراجع قيد أنملة بل وقف ثابتًا مواجهًا لهذا البلاء الكبير الذي يجتاح الأمة، إذ إنه يعلم أنه أصبح حائط الصد الأخير، حيث أصبح وحده في الميدان بعد أن مات محمد بن نوح تحت وطأة الحبس والتنكيل، والذي إن انهدم انهدمت معه الدفاعات الحصينة لعقيدة المسلمين في ذلك الزمن والتي ستورث للأبناء بعد ذلك جيلًا بعد جيل حتى تصير عقيدة يتم التحرك بها دون تفكير أو تأصيل إذا تربت عليها الأجيال فخرجوا بها وصاروا يحدِّثون الناس بها كأنها سليقة نزلت من عند الله.

خلاصة القول، وقف الإمام شامخًا لا يخشى في الله لومة لائم ولا يرضى إلا بقول الحق، حتى أنه فند كل ما قاله الضال أحمد بن أبي دؤاد، الذي ما إن فرغ وتيقن من فشله أمام العالم الحجة الذي أفحمه، استخدم سلطته فوجه كلامه للمعتصم قائلًا: "هو والله يا أمير المؤمنين ضال مضل مبتدع، وهنا قضاتك والفقهاء فسلهم"، فقال لهم: "ما تقولون؟"، فأجابوا بمثل ما قال ابن أبي دؤاد سواء من أجاب اقتناعًا أو نفاقًا أو خوفًا، ولكن تمت الإجابة بموافقة على ما قال ابن أبي دؤاد، بل وجاءت السياسية لتلعب دورها في هذا الموقف المتأجج وذلك بتدخل إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد وذلك بغية دعم موقف ابن أبي دؤاد الذي أصبح مهزومًا في هذه المناظرة فتدخل قائلًا: "يا أمير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة أن تخلي سبيله ويغلب خليفتين"، فعند ذلك حمي المعتصم واشتد غضبه وأتى تحريض إسحاق هدفه فاعتبر المعتصم الأمر وكأنه هزيمة شخصية له فغضب على الإمام أحمد وأمر بجلده [1].

(1) ابن كثير| البداية والنهاية| ج10 ص 324.

جلد وثبات

لما بدأ التهديد بالضرب بالسياط ظن البعض أن الإمام سوف يخضع بذلك، ولكنه أبى واستمر في ثباته، وكان مما يُعرف عن الإمام أنه كان يقول: "لست أُبالي بالحبس ما هو ومنزلي إلا واحد[1]، ولا قتلًا بالسيف إنما أخاف فتنة السَّوط"، وهذا أمر طبيعي فما نحن سوى بشر في نهاية الأمر وقد تضعف النفوس ولكن الله تعالى يرزقنا من يثبِّتنا على موقفنا، ومن عجيب الأمور أن الثبات في هذا الموقف لهذا العالم الزاهد العابد الثابت كان من لصٍ.

فعن عبد الله بن أحمد بن حنبل أنه كان يقول: كنت كثيرًا أسمع والدي أحمد بن حنبل يقول: رحم الله أبا الهيثم، فقلت: من أبو الهيثم؟

قال: أبو الهيثم الحداد لما مُدت يدي إلى العقاب وأُخرجت للسياط إذا بإنسان يجذب ثوبي من ورائي ويقول لي: تعرفني؟ قلت: لا.

(1) أي أن منزله ليس به وسائل الرفاهية والنعيم، بل كان متواضعًا لأقصى درجة رحمه الله.

قال أنا أبو الهيثم العيار اللص الطرار، مكتوب في ديوان أمير المؤمنين أني ضُربت ثمانية عشر ألف سوط بالتفاريق وصبرت في ذلك على طاعة الشيطان لأجل الدنيا فاصبر أنت في طاعة الرحمن لأجل الدين.

فسبحان الله بعد هذه الكلمات ذهب عن الإمام الخوف من السياط، بل وقف صامدًا محتسبًا وزاد ثباته أكثر من ذي قبل.

وأُحضرت الخشبة والسياط، وشُدَّ أحمد على العقابين [خشبتان يشق الرجل بينهما بالجلد] فخُلعت يداه وهو صامد، وعندها أخذت المعتصم شفقة على الإمام، وأعجب بثباته وتصميمه وصلابته، ولكن أحمد بن أبي دؤاد أغراه، وقال له: "يا أمير المؤمنين تتركه فيقال غلب خليفتين"؛ فعمي المعتصم لكلمته الشريرة، وأمر بالإمام فأخذ الجلادون في ضربه بالسياط، يتناوبون على ضربه، هذا يضرب سوطين، والآخر ثلاثة، وهكذا حتى إذا بلغ سبعة عشر سوطًا قام إليه المعتصم وقال له: "يا أحمد علام تقتل نفسك؟ وإني والله عليك لشفيق"، وجعل "عُجَيْف" وهو أحد قادة الأتراك العسكريين في جيش المعتصم ينخسه بقائمة سيفه ويقول: "أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟" وجعل بعضهم

يقول: "ويلك أمامك الخليفة على رأسك قائم"، وقال بعضهم: "يا أمير المؤمنين دمه في عنقي، أقتله"، وجعلوا يقولون: "يا أمير المؤمنين أنت صائم، وأنت في الشمس قائم"، والمعتصم يقول: "ويحك يا أحمد! ما تقول؟"، فيجيب الإمام بكل صمود وثبات: "أعطوني شيئًا من كتاب الله، أو سنة رسول الله أقول به"، فيأمر المعتصم بمواصلة الضرب، ثم قال له المعتصم مرة أخرى: "أجبني إلى شيء فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك بيدي"، ومع ذلك الإمام صامد، فأخذوا في ضربه حتى أُغمى عليه من شدة الضرب، وقد تمزق ظهره من لهيب السياط [1].

ومما يذكر في هذا الصدد أن المعتصم قد رق قلبه من ثبات الإمام وندم ندمًا كبيرًا، وكان يسأل عن حاله يوميًا وفرح عندما علم أنه شُفى من جراحه، وكان الإمام أحمد يقول إنه عفا عن كل من آذاه إلا أهل البدعة، وكان يقول في ابن أبي دؤاد: "ماذا ينفعك أن يعذب أخوك المسلم بسببك؟". [2]

---

(1) البداية والنهاية| ج10 ص 324 وما بعدها.

(2) إلهامي| رحلة الخلافة العباسية ج1 ص 585.

وقد تُوفي المعتصم وهو المسمى بالمثمن[1] بعد رحلة مع المرض، فتولى بعده الواثق بالله.

الواثق بالله

ظن الناس بعد موت المعتصم أن الفرجة قد جاءت ولكن تولى الواثق بالله الذي سار على هدي أبيه وعمه، وخصوصًا في قضية خلق القرآن ومنهج المعتزلة الفاسد، وكذلك تقريب أحمد بن أبي دؤاد، فامتحن الناس جميعًا، من قال منهم بخلق القرآن نجا، ومن لم يقل

(1) حيث إن الرقم 8 لعب دورًا مهما في حياته، هو محمد الخليفة العباسي المعتصم بالله ولد عام 180هـ في الشهر الثامن وفي اليوم الثامن من شهر شعبان وهو ثامن خلفاء بني العباس، وثامن أولاد هارون الرشيد، وأنجب ثمانية بنين وثماني بنات.

أملاكه: بلغت ثروته ثمانية عشر ألفًا، بنى ثمانية قصور، خلّف من الذهب ثمانية آلاف دينار، وثمانية عشر ألف ألف درهم، وثمانين ألف فرس، وثمانية آلاف مملوك، وثمانية آلاف جارية، وأما عن أعماله فقد استلم الخلافة سنة 218هـ في شهر أغسطس(شهر8)، فتح 8 فتوح. وكانت مدة خلافته 8سنوات و8أشهر و8أيام.قتل ثمانية. وسيطر على 8ملوك من ملوك العالم وقتل معظمهم ويبلغ عددهم ثمانية على التوالي وهم: 1- بابك 2- الأفشين 3- مازيار 4- باطيس 5- رئيس الزنادقة 6- عجيفًا 7- قارون 8- أمير الرافضة.

سُجن وحُبس بتهمة خلقة القرآن، بل فعل ما هو أضل من ذلك من قتل من لم يقل بهذه الفرية وتلك الأكذوبة، مثلما حدث مع أحمد بن نصر الخزاعي وهو من أعلام عصره، ويكفي أن نذكر أن من تلامذته سفيان بن عيينة والإمام مالك وحماد بن زيد كما نقل عنه أكابر العلماء مثل يحيى بن معين وأحمد بن حنبل، فاستدعاه الواثق بالله، فجاء إليه وهو واثق من نهايته، ولكنه ثبت على الحق، كما فعل إمام المحنة أحمد بن حنبل، وظل يدافع عن القرآن وعن السنة ويخاطب الخليفة بما يكرهه، فحكم عليه الجلساء لما فرغت حججهم وأفحمهم قضوا عليه بالكفر واستحلال دمه، فقام الواثق فقتله بنفسه وهو يظن أنه يبلغ بذلك أجرًا عند الله، أي يقتل عالمًا قربة لله، فأي فساد عقائدي هذا! بل ولم يكتف بذلك بل علق رأسه على الجانب الشرقي في بغداد، ثم الغربي وعليه حراس مخافة أن ينزلها الناس ويكرموها، بل ولم يكتف بهذا بل وضع في رأسه رقعة مكتوب عليها هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر الخزاعي[1]، بل وسجن الواثق أصحاب أحمد بن نصر وسماهم الظلمة ومنع عنهم

(1) وظل هذا الموضع في بغداد معروفا باسم رأس أحمد بن نصر

الزيارة داخل السجن، وأسوأ من هذا أنه منع الأرزاق التي تُمنح للمساجين[1].

وكان هذا الخبر كالصاعقة في بغداد وحزن عليه الجميع، ولكنه أدخل الخوف في قلوب الكثيرين مما جعل الكثير يقول بخلق القرآن خوفًا من بطش الواثق بالله.

مع الإمام أحمد بن حنبل

كان يقين الواثق بالله وخصوصًا بعدما حدث من تعذيب الشيخ مع والده أنه لن يتزحزح قيد أنملة عن عقيدته، ورغم أن أتباعه في تزايد إلا أنه كتب إلى محمد بن أبي الليث بامتحان كثيرين من الناس، ومُلأت السجون بمن أنكر واتبع الإمام أحمد بقول الحق، فأمر بأن تُكتب على المساجد عبارة "لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق" فعُلِّقت على المساجد بفسطاط مصر، ومنع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي من الجلوس في المساجد وضيق عليهم الأمور، وبعث إلى الإمام أحمد يحدد إقامته "لا

(1) إلهامي| ص 594

تساكني بأرض" وقيل أمره ألا يخرج من بيته، وظل الإمام أحمد هكذا حتى مات الواثق بالله ووقاه شره، وأراه سبحانه ثمرة جهاده وصبره فكرَّمه وأعلى ذكره وخسف بأعدائه وأذلهم وكان في ذلك عبرة[1].

انفراج الغمة

بعد موت الواثق بالله وتولي المتوكل من بعده وكان على عقيدة السنة مخالفًا لهذا المنهج الفاسد، وذلك عام 232هـ وطعن عليهم فيما كانوا عليه وأمر بإظهار الرواية للحديث فأظهر الله به السنة، وأمات البدعة وكشف عن الخلق الغمة وأنار به تلك الظلمة فأطلق سراح كل من أُعتقل بتهمة خلق القرآن، وأمر بالقبض على رؤوس الفتنة كمحمد بن عبد الملك الزيات ووضعه في تنور إلى أن مات، أما أحمد بن أبي دؤاد فقد ابتلاه الله بمرض شديد وهو الفالج[2] إلى أن مات، بل وصُودرت

(1) محمد نغش| ذكر محنة الإمام أحمد بن حنبل ص 14-15.

(2) أي الشلل وله آثار شديدة جدا على الشخص نفسه قد يرى في مواطن مقززة لعدم تحكمه في بعض الأحيان في بوله وبرازه.

أمواله وضيعاته وكذلك ابنه ووُلي القضاء يحيى بن أكثم، ومما يُروى عن جلاد الإمام أحمد بن حنبل فسبحان الله كما لو أن الله أراد الانتقام منه مما فعل، فعن عمران بن موسى قال: دخلت على أبي العروق الجلاد الذي ضرب أحمد لأنظر إليه فمكث خمسة وأربعين يومًا ينبح كما ينبح الكلب[1].

بل وقرب المتوكل الإمام أحمد إليه، فمما يُذكر أنه أرسل إليه ليأتيه قائلًا: "أحببت أن أراك وأتبرك بدعائك"، فلما وصل إليه قال المتوكل لأمه: "يا أماه قد أنارت الدار"، ومنحه خلعة ومال فلما علم الإمام بذلك بكى وقال: "أسلم من هؤلاء منذ ستين سنة فلما كان آخر العمر ابتليت بهم"، ولما جاء بالخلعة لم يمسها ولا غيرها ولم يقبل المال فقيل له ما مفاده إن رددته وجد عليك في نفسه أي غضب منك، فقام بتوزيعه على مستحقيه[2]، فأي زهد هذا! وأي ورع ذاك الذي نقف أمامه عاجزين! فرحم الله هذا العالم الجبل الشامخ.

(1) المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الأمام أحمد| مجير الدين المقدسي الحنبلي ص 39، 40.

(2) المرجع السابق ص 40.

وقفة مهمة

قد يثور تساؤل خطير في أذهان البعض عن أي نصر نتحدث وعن أي تمكين نتكلم وقد أُوذي الإمام وهو التقي العالم الزاهد الورع الصالح، وعُذِّب وحُبس حتى مات الخلفاء الذي آمنوا بهذه العقيدة الفاسدة، وما انفرجت هذه الغمة إلا بمجيء من كان على عقيدة صحيحة؟ وحتى نفهم إجابة هذا التساؤل المهم لا بد أن يكون لنا وقفة مع فقه التمكين في الإسلام والذي بعده سنفهم كيف كان ما فعله الإمام نصرًا مبينًا وفتحًا عظيمًا يفوق فتح البلدان والحصون، إذ أنه فتح القلوب للانتصار للسنة والعقيدة الصحيحة.

فقه التمكين في الإسلام

إن التمكين من أهم الأمور التي عنى بها الإسلام، وذكرها القرآن الكريم في كثير من المواطن، بل هي هدف ركين لكل المساعي والجهود التي تبذل والحروب والدماء التي تُراق، والإنفاق الذي يُنفق في سبيل

الله، فكل هذا وغيره إنما للسعي وراء التمكين، ولكن هنا يثور تساؤل مهم ألا وهو.. ما هو معنى التمكين؟

فالتمكين كما يراه البعض مقصور على أن يَملِك المسلمون زمام قيادة العالم من جديد كما كانوا في القرون الماضية، وأن يَفتحوا قلوب العالمين بنور هذا الدين الحق، وإعلاء كلمة الله هي العليا، وأن يَحكموا الناس بشريعة الله، ويرفعوا ظُلْم الظالمين، وفساد المفسدين، وغير ذلك من المفاهيم التي تدور في فلك ما ذكرناه.

وكل هذا رائع بل ومصداق لقوله تعالى: "وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين"، بل وقوله تعالى: "**وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ. وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ**"[1].

لكن ماذا لو انهزم المسلمون في معركة من المعارك؟ وقد حدث، ماذا لو وصل المسلمون إلى قاع الانحطاط الأخلاقي؟ ووصلنا إلى قاع العالم في أدنى درجات الدنو مثلما نحن الآن هل نشكك في التمكين أو نشكك في العقيدة أو نشكك في القرآن الكريم؟ بل لقد انهزم النبي ﷺ

(1) سورة الصافات.

في غزوة أحد وكاد أن يُقتل فكيف إذن يكون التمكين؟ بل وقُتل من أنبياء الله الكثيرون فكيف إذن حق على الله نصر المؤمنين، بل وهل هناك أكثر إيمانًا من الأنبياء ليحق على الله نصرهم؟

إن إجابة هذه الأسئلة تدور في فلك نقطتين الأولى وهي لماذا وصل المسلمون إلى هذه الدرجة من القاع رغم أنهم على دين الحق؟ فلإجابة هذا التساؤل يجب أن نعرف أن للتمكين ضوابط وأسس إن أخذنا بها انتصرنا ومُكِّن لنا في الأرض وإن لم نأخذ بها لم ولن ننتصر بل يستبدل الله قومًا غيرنا، وهذا ما حدث مع قوم عاد وثمود وغيرهما مثلما ذكر القرآن الكريم، أي أن للتمكين شروط على رأسها العمل بكتاب الله وسنة نبيه في شتى أمور الحياة أي لا نأخذ ببعض الكتاب ونترك بعضه، فإن فعلنا ذلك كان حق على الله نصر المؤمنين أي لا بد أن نكون بداية من المؤمنين الذين يحق على الله نصرهم، وإلا فيسلط الله علينا ذلًا لا يرفعه إلا إذا رجعنا إلى أمر الله وهذا مصداق لحديث رسول الله ﷺ "إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ"[1].

(1) صححه الألباني.

أما النقطة الثانية والمهمة وهي كيف تُقتل الرسل والأنبياء ونسمي هذا تمكينًا؟ وكيف يُهزم الصالحون والأتقياء ونتحدث عن التمكين؟

فلإجابة هذه النقطة نذكر ما قاله الشيخ سيد قطب – رحمه الله– إذ أوجز قائلًا: "ويدخل الشيطان من هذا المدخل ويفعل الأفاعيل:

إن الناس يقيسون بظواهر الأمور، ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة في التقدير، إن الناس يقيسون بفترة قصيرة من الزمان، وحيز محدود من المكان، وهي مقاييس بشرية صغيرة، فأما المقياس الشامل فيعرض القضية في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان، ولا يضع الحدود بين عصر وعصر ولا بين مكان ومكان، ولو نظرنا إلى قضية الاعتقاد والإيمان في هذا المجال لرأيناها تنتصر من غير شك. وانتصار قضية الاعتقاد هو انتصار أصحابها، فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتي خارج وجودها. وأول ما يطلبه منهم الإيمان أن يفنوا فيها ويختفوا هم ويبرزوها، والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صور معينة معهودة لهم، قريبة الرؤية لأعينهم، ولكن صور النصر شتى وقد يتلبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة"[1].

(1) سيد قطب| تفسير الظلال| ج5 ص3086.

فهذا الذي مفاده أن للتمكين والنصر نوعان، أولهما: ظاهر وواضح للعيان، وهو بتحقيق ما ابتغى وفي حياة من سعى لها مثل ما حدث في حياة النبي الذي انتصر في نهاية الأمر على المشركين وأسس لدولة عظيمة استمرت في حياته وبعد وفاته وإلى يومنا هذا، وكذلك كما في قصة يوسف عليه السلام الذي خرج من السجن وانتصر في النهاية بل وأصبح له مكانة عظيمة، إذ أصبح على خزائن الأرض، فهذا نصر واضح للعيان ولن نقف عنده كثيرًا لأنه لا يحتاج إلى توضيح، ولكن النوع الثاني من النصر هو ما يحتاج إلى توضيح وإجلاء، ذلك لأنه نصر وتمكين غير ظاهر بل ضمني في كثير من الأحوال وذلك مثلما يضرب الشيخ سيد قطب بعض الأمثلة لذلك، قائلًا: "إبراهيم عليه السلام وهو يُلقى في النار فلا يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها، أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة؟ ما من شك – في منطق العقيدة– أنه كان في قمة النصر وهو يُلقى في النار، كما أنه انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار"[1].

(1) سيد قطب| تفسير الظلال| ج5 ص3086.

"كم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام، كما نصرها باستشهاده، وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة، ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة، بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه، فتبقى حافزًا محركًا للأبناء والأحفاد، وربما كانت حافزًا محركًا لخطى التاريخ كله مدى أجيال"[1].

وهذا ما نحاول أن نوضحه، أن النصر والتمكين قد لا يكون بانتصار الجيش انتصارًا عظيمًا بل قد يكون بهزيمة نكراء، وموت ألوف مؤلفة، ففي بعض الأحيان مثلما نحيا الآن نحتاج إلى هزة عظيمة لتكون تمهيدًا للنصر والتمكين، فننهزم في مواطن لنحيي في النفوس ما قد دمره الأعداء، فكم من أناس لا يعرفون الله إلا في الشدائد! وكم من أناس لا يتقربون إلى الله إلا في المصائب! فأحيانا تكون الشدائد منحة في صورة محنة، وكذلك عند موت أحد الزعماء أو الأتقياء فقد يكون التمكين

(1) سيد قطب| تفسير الظلال| ج5 ص3086، راجع أيضا علي الصلابي| فقه التمكين في القرآن الكريم| ص 21،22.

بموته أفضل ألف مرة من حياته، فكم من شهيد سطر اسمه في التاريخ وصار قدوة بوفاته! فكما في قصة أصحاب الأخدود، والتي لم يؤمن فيها الناس إلا بعد وفاة الغلام، وهذا نصر عظيم وإن كان في ظاهره هزيمة لكثيرين ممن يرون الأمور بظواهرها فقط، بل حتى في الرسل والأنبياء "وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (14) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (17) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (18) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (19) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (21) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ (23) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (24) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ"، ففي هذه القصة التي يحكيها لنا

القرآن نجد أن أهل القرية لم يؤمنوا بأول رسول ولا بالثاني فعزز الله تعالى بالثالث ولم يؤمن له أيضًا، فكيف إذن يكون النصر في هذا الموضع؟

فالنصر هنا واضح رغم أنه نصر غير ظاهر إذ أوجزه الرسول هنا قائلًا: **"وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ"** فهنا كانت مهمتهم هي البلاغ وفقط وليس إيمان الناس وقد انتصروا ونجحوا في مهمتهم بالتبليغ، بل وقد كلل الله هذا النصر بإيمان رجل من أقصى المدينة، وإذا دققنا النظر هنا سنجد أنه جاء من أقصى المدينة أي أن الرسل نجحوا برسالتهم إلى أبعد ما يمكن أن يصل إليه البلاغ فوصلوا إلى أقصى المدينة، وهل بعد ذلك نصر وتمكين؟

وخلاصة ما نصبوا إليه هو أن النصر والتمكين نوعان: الأول واضح وجلي، والثاني غير ظاهر ولكنه يعد نصرًا وتمكينًا، وعلى المسلمين أن يفقهوا ذلك جيدًا حتى لا يدلس عليهم الشيطان والأعداء ذلك وأننا أمة منهزمة منكسرة، بل نحن منصورون بإذن الله، ولكن لا بد أن نأخذ بعوامل النصر والتمكين وأن نعود إلى أمر الله تعالى، ثم سنجد تمكينًا قد

لا يكون ظاهرًا فلا نيأس وتلتبس علينا الأمور حتى نصل إلى النصر والتمكين الواضح الذي نحلم به جميعًا.

قصة واهية

من القصص الواهية التي تتداول كثيرًا في الخطب وعلى المنابر هي قصة الإمام أحمد مع الخباز، وأردت أن أذكرها في هذا المقام حتى يعلم الجميع أنها لا أصل لها ولكن كثيرين من الخطباء يروونها لترقيق القلوب، ولكنها غير صحيحة، وملخص هذه القصة هي كالتالي: "أن الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله– كان في مدينة غريبة لا يعرفه أهلها، وقرر بعد أن بلغ به التعب مبلغه أن ينام في المسجد، فرآه حارس المسجد فرفض أن يمكث فيه، فقال الإمام: "سوف أنام موضع قدمي فقط"، ونام الإمام موضع قدمه، فقام الحارس بسحبه من قدميه وأخرجه من المسجد، وكان الإمام أحمد شيخًا وقورًا تبدو على وجهه ملامح التقوى والصلاح، فلما رآه خباز بهذه الهيئة عرض عليه أن يحضر لينام في منزله،

فذهب معه ولاحظ الإمام أحمد أن الخباز وهو يقوم بعمله في عجن العجين وخبز الخبز أنه يستغفر ويستغفر ويستغفر، فلما رأى الإمام حال هذا الخباز مع الاستغفار استأذنه أن يسأله سؤالًا، وكان الإمام يعرف أن للاستغفار فوائد عظيمة، فقال له: "هل وجدت لاستغفارك هذا ثمرة؟"، فأجابه الخباز: "نعم.. أنا والله كلما دعوت الله دعوة استجابها لي ما عدا دعوة واحدة"، قال له الإمام أحمد: "وما هي هذه الدعوة التي لم تُستجب؟"، قال الخباز: "دعوت الله أن يريني الإمام أحمد بن حنبل"، فقال الإمام: "أنا الإمام أحمد بن حنبل، والله إني جررت إليك جرًا!".

وهذه القصة **واهيـــة** لا أصل لها في كتب التراجم والمناقب، وخاصة الكتب التي ترجمَت للإمام أحمد رحمه الله، كمناقب الإمام أحمد لابن الجوزي، وطبقات الحنابلة وذيله، وسير أعلام النبلاء، وتاريخ بغداد، والبداية والنهاية، وغيرها من الكتب التي اعتنت بحياة الإمام أحمد رحمه الله، وللأسف الشديد كثير من المؤرخين أو أرباب الكلمة الذين على غير علم كافٍ أو لا يتحلون بالأمانة اللازمة للتحديث والتأريخ، فتجدهم يقولون ويؤلفون مثل هذه الروايات والقصص التي

لا أصل لها بهدف تعظيم شخصية ما أو رفع قدرها، وخصوصًا سنجد ذلك مع الملوك والوزراء إذ تجد كثيرًا من القصص المنسوبة لهم وهي لا أصل لها بل من خيال واضعها، وفي الحقيقة أن الإمام أحمد أو من على شاكلته ليسوا في حاجة إلى مثل هذه الروايات والقصص لتعظيمهم ورفع قدرهم إذ يا ليتنا شعرة في أظهر هؤلاء، فمكانتهم وصلت إلى عنان السماء دون حاجة إلى الترهات والقصص الواهية.

العز بن عبد السلام

هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن بن محمد بن مهذب السلمي، المغربي أصلًا، الدمشقي مولدًا، ثم المصري دارًا ووفاة والشافعي مذهبًا.

وُلد بدمشق 577هـ[1]، وكان العز بن عبد السلام يعيش في أسرة فقيرة مغمورة، لم تكن ذات مجد أو سلطان أو منصب أو علم، فقد وُلد في دمشق الشام وهي وقتئذ مركزًا مهمًا للعلم والمعرفة وقبلة أهل العلم، ومركز الفقهاء، بالإضافة إلى خط الدفاع الأمامي في مواجهة الصليبيين الغزاة الذين احتلوا مدنًا وحصونًا عديدة في فلسطين وساحل بلاد الشام، وكان العز من نشأته الأولى معروفًا عنه أنه عفيف شريف لم يمتهن مهنة تزري بصاحبها أو تحط من شأنه، بل كان متدينًا متعبدًا رغم فقره وكده على رزقه، ولا أدل على ذلك من مبيته في المسجد الليالي الطوال؛ كي لا تفوته صلاة الجماعة. وفي ذات ليلة نام فسمع مناديًا يقول

(1) ويذكر أنها 578 هـ.

له: يا ابن عبد السلام أتريد العلم أم العمل؟ فقال الشيخ: العلم لأنه يؤدي إلى العمل[1]، ويذكر أنه ذهب إلى ابن عساكر الذي تتلمذ على يديه بعد هذه الرؤية فحفظ التنبيه[2] في مدة يسيرة، وحفظ المتون ودرس الكتب حتى صار إمام حجة، وعَلَمًا من الأعلام، فمما يُذكر عنه في هذا الصدد أنه كان يراجع على العلماء في دمشق ما تعلمه وحفظه فكان ما تعلم علمًا من العلوم إلى أن أكمله على الشيخ حتى قال له شيخه: "قد استغنيت عني فاشتغل بنفسك، أي أنت أتممت العلم لدي"[3].

شيوخ العز وتلامذته ومصنفاته

---

(1) ومما يذكر عنه أنه في هذه الليلة احتلم وكانت ليلة شديدة البرودة فقام واغتسل فنام واحتلم، فقام بهمة ونشاط أيضًا واغتسل، ثم الثالثة أيضًا فقام بهمة واغتسل، ولنا أن نتخيل كم الهمة التي لدى الشاب أن يغتسل في هذه الليلة الباردة بالماء البارد، ترفعًا لله وتقوى وورعًا، على الرغم من كونه من الجائز أن يغتسل صباحًا.

وفي هذا دلالة أيضا على تلقيه العلم على كبر وليس منذ نعومة أظفاره، إذ أن هذا يعني أنه بلغ الحلم وبدأ تلقى العلم بعد ذلك وليس قبله رحمه الله.

(2) هو كتاب التنبيه في الفقه الشافعي.

(3) علي الصلابي| الشيخ العز بن عبد السلام سلطان العلماء وبائع الأمراء| ص 11،12.

من نعمة الله تعالى على العز بن السلام أن قيد له بيئة صالحة لطلب العلم، إذ كانت دمشق في ذلك الوقت كما ذكرنا قبلة أهل العلم وكانت تعج بالعلماء ولذلك فقد نهل العلم من أهله وأربابه، فتعلم على يد مشايخ يكتب اسمها بحروف من نور أمثال ابن عساكر فخر الدين، وهو شيخ الشافعية وفقيه زمانه في ذلك الوقت، وكذلك جمال الدين الحرستاني قاضي دمشق، وسيف الدين الآمدي أحد أذكياء العالم في ذلك الوقت، والقاسم بن عساكر كاتب تاريخ دمشق، وشهاب الدين السهروردي وغيرهم من العلماء الأفاضل[1]، وقد خرج من تحت يديه علماء يكفي أن نذكر منها ابن دقيق العيد – رحمه الله– وهو الذي أطلق على العز سلطان العلماء[2].

وللشيخ الكثير من المصنفات فقد ترك – رحمه الله– ثروة من المصنفات والرسائل المفيدة والفتاوى، منها: تفسير القرآن العظيم، الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، آمالي عز الدين بن عبد السلام

(1) علي الصلابي| العز بن عبد السلام| ص 13: 18.

(2) الوهيبي| العز بن عبد السلام حياته وآثاره| ص 47.

مختصر صحيح مسلم، شرح حديث أم زرع، بداية السول في تفضيل الرسول، قوعد الأحكام في مصالح الأنام، الإمام في بيان أدلة الأحكام، والفتاوى، والفتاوى المصرية، وغير ذلك من المصنفات والمؤلفات العظيمة التي تظل إلى يومنا هذا مرجعًا لأهل العلم.

لا يخشى في الله لومة لائم

كان العز مفتي الشام منذ عهد الملك الأشرف موسى بن العادل فسئل ذات مرة في المسألة التي أفتى بها الحنابلة في كلام الله "بأنه معنى بذاته قديم أزلي ليس بحرف ولا صوت"، فقال الشيخ: من قال بأنه حرف وصوت فإنه مخطئ مبتدع، وكان الملك الأشرف يدين بذلك فأوصلوها إليه وكانوا يريدون الوقيعة بين الشيخ والملك الأشرف، وكان العز يعلم ذلك حتى أنه قال: هذه الفتيا كُتبت امتحانًا لي، والله لا أكتب فيها إلا ما هو الحق، فكتب عقيدته المشهورة ملحة الاعتقاد، فلما قرأها الأشرف غضب عليه وكتب إليه جوابًا عنها، فرد عليه العز فاشتد غضبه فأرسل وزيره "الغزر" إلى العز ليبلغه أنه اشترط عليه ثلاثة

شروط: ألا يفتي، ولا يجتمع بأحد، وأن يلزم بيته، فقال العز: "يا غزر إن هذه الشروط من نعم الله الجزيلة عليَّ الموجبة للشكر لله- تعالى- على الدوام، أما الفتيا فإني كنت والله متبرمًا بها، وأكرهها، وأعتقد أن المفتي على شفير جهنم، ولولا أني أعتقد أن الله أوجبها عليَّ لتعينها عليّ في هذا الزمان لما كنت تلوثت بها، والآن عذرني الحق، وسقط عني الوجوب، وتخلصت ذمتي ولله الحمد، يا غزر من سعادتي لزومي لبيتي، وتفرغي لعبادة ربي، والسعيد من لزم بيته وبكى على خطيئته واشتغل بطاعة الله، وهذا تسليك من الحق وهدية من الله إليَّ أجراها على يد السلطان وهو غضبان وأنا بها فرحان، والله يا غزر لو كانت عندي خلعة تصلح لك على هذه الرسالة المتضمنة لهذه البشارة لخلعت عليك، ونحن على الفتوح خذ هذه السجادة صل عليها"، فقبلها وقبَّلها، ثم ودعه وانصرف إلى السلطان، وذكر له ما جرى بينه وبينه، فقال لمن حضره: "قولوا لي ما أفعل به، هذا رجل يرى العقوبة نعمة!"، وبقى العز على ذلك ثلاثة أيام حتى ذهب الشيخ العلامة جمال الدين الحصيري إلى الأشرف، وقال له: "هذا رجل لو كان في الهند أو في أقصى الدنيا كان ينبغي للسلطان أن يسعى في حلوله في بلاده، لتتم بركته عليه وعلى

بلاده، ويفتخر به على سائر الملوك"، فقال له الأشرف على الفتيا، فلما قرأ شيخ الحنفية الحصيري قال: "والله هذا اعتقاد المسلمين وشعار الصالحين ويقين المؤمنين وكل ما فيها صحيح"، فقال السلطان: "نستغفر الله مما جرى ونستدرك الفارطة في حقه، والله لأجعلنه أغنى العلماء"، وأرسل إلى الشيخ فاسترضاه، وكان بعد ذلك يأخذ بفتواه.[1]

مع السلطان أيوب

ومن المواقف أيضًا أنه في ذات الأيام حيث كان السلطان أيوب يحتفل بيوم العيد في القلعة، والعساكر مصطفة من حوله، والأمراء تقبِّل الأرض بين يديه، فناداه العز بن عبد السلام باسمه، "يا أيوب ما حجتك عن الله إذا قال لك: ألم أبوئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور؟"، فقال السلطان أيوب الذي ارتعد في مثل هذا الموقف: "هل جرى هذا؟"، فقال: "نعم في الحانة الفولانية يباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة، يناديه كذلك بأعلى صوته

(1) المرجع السابق 55،56.

والعساكر واقفون"، فقال: "يا سيدي هذا أنا ما عملته، هذا من زمان أبي"، فقال: "أنت من الذين يقولون "إنا وجدنا أباءنا على أمة"" فكتب السلطان مرسومًا بإبطال الحانة.

قال الباجي وهو أحد تلاميذ العز متعجبًا مما حدث: "كيف الحال؟"، فقال: "يا بني رأيته في تلك العظمة فأردت أن أهينه لئلا تكبر نفسه فتؤذيه"، فقلت: "يا سيدي أما خفته؟"، فقال: "والله يا بني استحضرت هيبة الله فصار السلطان قدامي كالقط". [1]

مع الصالح إسماعيل

لقد حدث مع الصالح إسماعيل أمرًا في غاية الخطورة ترتب عليه أن اتخذ الشيخ العز بن عبد السلام موقفًا عظيمًا وهو قول الحق ولو عند سلطان جائر، وقد جار السلطان ليس في حق من يحكمه فقط بل في حق كل المسلمين وفي حق دينه.

(1) الوهيبي| العز بن عبد السلام حياته وآثاره| ص 30،31.

ففي سنة 638هـ خاف الصالح إسماعيل على منصبه وكرسي الحكم من ابن أخيه نجم الدين أيوب بن الكامل حاكم مصر من انتزاع دمشق، فما كان منه إلا أن اتخذ قرارًا خطيرًا وهو أن يتعاون مع الإفرنج الصليبيين ضد ابن أخيه، وقدم لهم نظير هذا التعاون عددًا من الحصون، مثل: صيدا والشقيف وصفد وحصون أخرى، بل وسمح لهم بدخول دمشق وشراء الأسلحة وذلك لقتال المصريين كيدًا في نجم الدين وطمعًا في المنصب والكرسي وحب السلطة.[1]

وقفة مع التعاون مع الأعداء على حساب المسلمين

لقد اجتمع علماء الأمة الإسلامية على عدم جواز مظاهرة أعداء الإسلام على حساب المسلمين، أي لا يجوز موالاتهم ضد إخواننا من المسلمين، بل وصل الأمر بأن من يفعل ذلك يدرج في درجة الكفر، فقد قال تعالى: " **بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ**

(1) راجع بتصرف السلوك| ج1 ص 303، النجوم الزاهرة ج6 ص 338.

مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا"[1]، وقال تعالى: "تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ"[2]، وقال تعالى: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ..." إلى قوله "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ..."[3]، وقال تعالى: "لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً"[4]، إلى غير ذلك

(1) سورة النساء الآية 139،138.

(2) سورة المائدة الآية 81،80.

(3) سورة المائدة.

(4) سورة آل عمران، الآية 28.

من الآيات الدالة على هذا المعنى، المؤكدة له، تأكيدًا يمنع تأويل الجاهلين، وتحريف المبطلين.

موقف العز مما حدث

ذهب أهل دمشق إلى العز يستفتونه في أمر بيع الأسلحة لأعداء الإسلام فكانت الفتوى واضحة وصريحة جلية لأهل دمشق "يحرم عليكم مبايعتهم، لأنكم تتحققون أنهم يشترون ليقاتلوا به إخوانكم المسلمين"، بل لم يكتف بذلك بل وفي خطبته التي كان يحضرها عدد لا يُحصى من المسلمين قام بالتعريض بالصالح إسماعيل، ولم يدع له كعادة الخطباء في ذلك العصر مما يدل دلالة واضحة على خلعه، بل وقال في ختام خطبته: "اللهم أبرم لهذه الأمة أمر رشد تعز فيه وليك وتذل فيه عدوك ويعمل فيه بطاعتك وينهي عن معصيتك"، فعلم الصالح إسماعيل بذلك، ومن التعريض الذي ذكر في الخطبة الذي يُفهم منه أنه هو العدو لتعاونه مع أعداء الإسلام وتسليم الحصون المسلمة وفتح الأبواب للعدو بشراء الأسلحة وعمل ما يشبه قواعد عسكرية لهم

وذلك لقتال المسلمين من أهل مصر، فأمر بعزله عن الخطابة واعتقاله، فخرج إلى القدس وقابل الملك الناصر داوود حاكم نابلس الذي أخذه معه وقد حدثت هناك للشيخ خطوب، وذلك لأنه متحالف مع الصالح إسماعيل على حساب نجم الدين أيوب حاكم مصر، وبعد فترة عاد العز إلى بيت المقدس في الوقت الذي وافق تواجد الصالح إسماعيل هناك، فأرسل له رسول لملاينته قائلًا له: "بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وزيادة، أن تنكسر للسلطان وتقبِّل يده لا غير"، فقال العز له: "والله يا مسكين ما أرضاه أن يقبِّل يدي فضلًا أن أقبِّل يده، يا قوم أنتم في واد وأنا في واد، والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به"، فأُمر باعتقال الشيخ وذلك بخيمة بجوار الصالح إسماعيل، فبقي العز في اعتقاله صابرًا محتسبًا تاليًا لكتاب الله تعالى، ومما يذكر في هذا الصدد أنه ذات يوم كان تاليًا للقرآن في خيمته بجوار خيمة الصالح إسماعيل الذي كان مجتمعًا مع الإفرنج للتخطيط والتدبير لقتال المصريين المسلمين فقال الصالح إسماعيل لمن معه: "أتسمعون الشيخ الذي يقرأ القرآن؟"، فقالوا: "نعم"، قال: "هذا أكبر قسوس المسلمين وقد حبسته لإنكاره عليَّ تسليمي حصون المسلمين وعزلته من الخطابة بدمشق وعن مناصبه،

ثم أخرجته فجاء إلى القدس وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم". فقالت ملوك الإفرنج: "لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقتها"[1]، وبقي الشيخ على حال اعتقاله إلى أن انهزمت الجيوش الصليبية مع الصالح إسماعيل بفضل الله ثم الأشاوس المصرية، وخرج الشيخ من معتقله واتجه صوب مصر لبدء مرحلة جديدة في حياته والانتقال من اختبار إلى آخر ليظهره الله تعالى على العالمين بتقواه وورعه وجلده ليكون عبرة لمن اعتبر وقدوة لمن أراد أن يتخذ قدوة ومثالًا واضحًا لقول الحق ولو كلَّفه حريته وحياته.

العز بن عبد السلام في مصر

لما قدم الشيخ على مصر رحب به الملك الصالح نجم الدين أيوب، وعلى الفور ولّاه الخطابة والقضاء، فبدأ العز نشاطه بمصر بإقامة السنة ومحاربة البدعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونشر العلم، وقد ولى الإفتاء رغم أنه لم يكن الإفتاء في ذلك الوقت منصبًا معلومًا من قِبل

(1) طبقات الشافية للسبكي| ج8 ص 243، العز بن عبد السلام آثاره ومنهجه |ص 59 وما بعدها.

الحكومة ويُعين له راتب، ولكن كان يتصدى له العالم الذي يرى في نفسه أهلًا لذلك، فيقصده الناس يستفتونه وكان العز مفتي الشام منذ الملك العادل موسى بن الأشرف، والذي حدثت بينهم مشادة نتيجة فتوى الشيخ كما ذكرنا آنفًا، وقد كان الشيخ ذائع الصيت حتى في مصر، إذ منذ قدومه أحجم علماء مصر عن الفتيا لأن العز أحق بها.

حادثة بيع الأمراء

قد تولى العز بن عبد السلام القضاء في مصر منذ أن وطأت قدمه أرضها، تقديرًا وتعظيمًا لقدره ومكانة لعلمه وفضله.

فقد رحب به الملك نجم الدين أيوب وولّاه الخطابة بأكبر مساجد مصر وهو مسجد عمرو بن العاص، وكذلك عمارة المساجد المهجورة بمصر، ثم وكّل إليه مهمة القضاء في مصر والوجه القبلي، وكان قاضيًا عادلًا لا يخشى قول الحق مهما كلفه ذلك صارمًا مساويًا بين القوي والضعيف، وقد تنازل عن منصبه هذا مرتين، الأولى منها كانت في حادثة بيع الأمراء، فما هي تلك الحادثة التي لا يمكن أن تُنسى في التاريخ؟

عندما تولى الشيخ القضاء لاحظ أمرًا مخالفًا للشرع وهو أن العبد أو المملوك لا يحق له إنفاذ بيعه وشرائه، ولذلك كان كلما عرض على الشيخ ذلك يرفض إنفاذ البيع والشراء للمماليك، ذلك لأنه تم شراؤهم من بيت مال المسلمين وبالتالي لا يجوز لهم التملك إلا بضوابط وشروط، مما ضايق المماليك بشدة فراجعوه في ذلك فرفض، وقال: "لا بد من إصلاح أمركم بأن يُعقد لكم مجلس فتباعوا فيه من جديد، ثم يرد ثمنكم لبيت مال المسلمين، ثم يحدث عتقكم فيحق لكم البيع والشراء"، فغضبوا جدًا لأجل هذا الأمر، وعرضوا الأمر على الملك الذي غضب بشدة أيضًا، وقال: "هذا ليس من شأن الشيخ ولا اختصاصه". فلما علم الشيخ بذلك عزل نفسه عن القضاء كي لا يستطيع أحد تغيير قضائه أولًا، وثانيًا لأن في مصر لا يطبق شرع الله، فأخذ أمتعته وأهله واتجه صوب الشام فتبعه العلماء والصلحاء والتجار والنساء والصبيان، فصار الأمر أشبه بمظاهرة ضد الحكومة، وجاء من همس في أذن الملك الصالح نجم الدين أيوب قائلًا: "متى راح الشيخ ذهب ملكك"، فخرج الملك مسرعًا ولحق بالعز وأدركه في الطريق

وترضاه، وطلب منه أن يعود وينفذ حكم الله فلما رجع العز تيقن المماليك أن العز سوف ينفذ فيهم الحكم لا محالة، وفي هذا فضيحة، إذ كيف يباعون وهم ملوك الأرض؟! ولذلك قرروا قتله سرًا، فقام نائب السلطنة – وهو يعد الرجل الثاني في الدولة– مع مجموعة من الجنود بالتوجه إلى بيت الشيخ ففتح ابنه الباب ورأى الشر في عيونهم والسيف مستل فهرع إلى أبيه قائلًا: "انج بنفسك لقد جاء الموت"، فكان رد الشيخ العظيم والذي يدل على إيمانه بالله وتقواه وورعه: "هدئ من روعك يا ولدي فأبوك أقل من أن يُقتل في سبيل الله"، ثم خرج وهو راضٍ بما يقسمه الله له ولا يخشى في الله لومة لائم، فلما شاهده نائب السلطنة على ذلك ارتعدت مفاصله ودب الخوف في قلبه، وسقط السيف من يده، وبكى وسأل الشيخ أن يسامحه، وقال: "ماذا أفعل؟"، فكان رد الشيخ: "أنادي عليكم وأبيعكم"، قال: "ففيم تصرف ثمننا؟"، قال: "في مصارف المسلمين".[1]

(1) الوهيبي| العز بن عبد السلام حياته وآثاره| ص 63 وما بعدها، راجع علي الصلابي العز بن السلام سلطان العلماء وبائع الأمراء |ص 70 وما بعدها.

وتم له ذلك بالفعل وعرض الملوك والأمراء واحدًا تلو الآخر في بيع علني، وكان لا يقبل بالثمن البخس بل كان يغالي في أثمانهم قدر استطاعته، ولما قبض كل هذه الأموال قام بصرفها على مصارف المسلمين.

موقفه مع الوزير وهدم الطبلة خانة فوق المسجد

لم تمض سنة واحدة على حادثة بيع الأمراء في المزاد العلني حتى وصل إلى علم الشيخ العز بن عبد السلام ما فعله أستاذ الدار عن السلطان "وهو ما يعادل كبير أمناء الملك أو الرئيس" وهو معين الدين الذي كان إلى منصبه اختصاصات الوزير وقائد الجيش في المعارك وفتح دمشق، لكنه كان عابثًا متحللًا ومعتدًا بقوته ومنصبه، ولذلك تجرأ على منكر كبير يخالف أحكام الدين ويسخر بالشرع ويسيئ إلى مشاعر المسلمين، إذ بنى فوق أحد مساجد القاهرة طبلخانة - أي قاعة لسماع الغناء والموسيقى- وذلك سنة 640 هـ وما إن ثبت عند الشيخ العز وهو يتولى منصب قاضي القضاة حتى غضب وأمر بهدم القاعة، ولكنه

خشى من جبن الناس في التنفيذ خوفًا من منصب معين الدين فقام بنفسه وجمع أولاده والموظفين عنده، وذهب إلى المسجد، وحمل معوله معهم وقاموا بإزالة المنكر وهدم المستحدث فوق المسجد، ولم يكتف بذلك التحدي للوزير والسلطان معًا بل أسقط عدالة الوزير بما يعني عدم قبول روايته وشهادته أمام القضاء، ثم عزل نفسه من القضاء حتى لا يبقى تحت رحمة السلطان ويهدده بالعزل، وبالتالي لا يمكن بذلك تغير القضاء الذي قضى به، وكان لهذا العمل دوي هائل وأثر عجيب وتنفس الناس الصعداء من تسلط الحكام وارتكاب المخالفات وممارسة التجاوزات الشرعية، ولم يجرؤ أحد أن يمس الشيخ العز بسوء بل أدرك السلطان نجم الدين أن الحق مع الشيخ وتلطف معه للعودة للقضاء ولكن الشيخ أصر على ذلك، فوصل الأمر إلى الخليفة في بغداد وأخذ صدى ما حدث يجوب العالم الإسلامي كله، حتى أن السبكي يذكر: "واتُفِقَ أن جهز السلطان الملك الصالح رسولًا من عنده إلى الخليفة المعتصم ببغداد فلما وصل إلى الديوان، ووقف بين يدي الخليفة وأدى

الرسالة خرج إليه وسأله: "هل سمعت هذه الرسالة من السلطان؟"، فقال: "لا، ولكن حملنيها عن السلطان معين الدين ابن شيخ الشيوخ وأستاذ الدار"، فقال الخليفة: "إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام فنحن لا نقبل روايته"، فرجع الرسول إلى السلطان بمصر حتى شافهه بالرسالة، ثم عاد إلى بغداد وأداها"[1] فإلى هذه الدرجة وصلت مكانة الشيخ العز، وإلى هذه الدرجة وصلت كلمته.

مع شجرة الدر

لما وقع الاتفاق على سلطنتها حضر القاضي تاج الدين بن بنت الأعز وبايعها بالسلطنة على كره منه، فقال الشيخ العز لما تولت شجرة الدر الديار المصرية: "عملت في ذلك مقامة وذكرت فيها بماذا ابتلى الله به المسلمين بولاية امرأة عليهم؟!"[2]، وفي ذلك رد على من يقول إنه لم يوجد أحد من علماء الدين قد أنكر تولية امرأة الحكم بمصر.

---

(1) العز بن عبد السلام|علي الصلابي| ص 72، 73.

(2) بدائع الزهور ج1 ص 286.

ختام

هكذا كان الشيخ العز بن عبد السلام، وهكذا لا بد أن يكون علماء الأمة، لا يخشون في قول الحق لومة لائم، وإلا لكان حال الأمة مثلما هي الآن، وكان للعز مواقف عظيمة أيضًا في حياة سيف الدين قطز والتي كانت سببًا أساسيًا لتجهيز الجيش الذي قاتل التتار في ذلك الوقت وانتصر عليه بفضل الله تعالى، نذكر منها واقعة جمع الضرائب.

فعند وصول قطز لسدة حكم مصر، وظهور خطر التتار ووصول أخبار فظائعهم، وللاستعداد لملاقاة التتار الزاحفين، أمر قطز بجمع الأموال للإعداد للحرب، وهذا أمر جائز للحاكم، إذ أن لجمع الضرائب شروطًا وضوابط من بينها أنها تجمع لغاية ووقت محدد، ولكن العزّ بن عبد السلام وقف في وجهه، وطالبه ألا يأخذ من الناس شيئًا إلا بعد إفراغ بيت المال، وبعد أن يُخرج الأمراء وكبار التجار من أموالهم وذهبهم المقادير التي تناسب غناهم حتى يتساوى الجميع في الإنفاق، وأصر على أن يُخرج كبار رجال الدولة وعلى رأسهم الأمراء ما معهم من أموال ولا يتبقى معهم إلا بيوتهم وأحصنتهم ودروعهم وسيوفهم التي

سيحاربون بها ويصبحون متساوين مع الشعب[1]، حينها يمكن فرض الضرائب على الشعب، فنزل قطز على حكم العزّ، وقد قدم الأمراء المماليك ما لديهم من أموال، ولم يتخيل أحد أن تكون بهذا الحجم، فقد كانت كافية لتجهيز الجيش العظيم المهيب الذي انتصر بفضل الله ومعيته على أقوى جيش في ذلك الوقت، وهو جيش التتار الذي لم يكن يترك أخضر ولا يابسًا إلا دمره.

وفاته رحمه الله

وقد تُوفي العزّ بن عبد السلام في العاشر من جمادي الأولى سنة ستين وستمائة للهجرة، فرحم الله الشيخ العز بن عبد السلام الذي كان يقول الحق ولا يخشى السلطان أو عقابه.

❋ ❋ ❋

(1) لدينا كتاب في هذا الصدد سوف يصدر قريبًا بعنوان الضريبة في ميزان التشريع الإسلامي نوضح فيه بجلاء أمورًا كثيرة حول هذا الصدد وفكرة الضريبة وموضعها من الشرع وغير ذلك من الأمور.

الشيخ آق شمس الدين

إن فتحَ القسطنطينية من الأمور العظيمةِ التي لا تخفى على أحدٍ في العالم أجمع سواء من المسلمين، أو النصارى، أو اليهود أو حتى غير هؤلاء جميعًا، فهذا الحدث قد أحدث ضجة قلبت العالم كله رأسًا على عقب، بل غيّرت مجرى التاريخ بحق.

فالقسطنطينية ذات مكانة كبيرة في العالم أجمع، فنجد نابليون قد قال مرة في حقها: "لو كانت الدنيا مملكة لكانت القسطنطينية عاصمتها"[1]، بل إن هذا الفتح قد بَشرَّ به رسول اللهّ ﷺ حين قال: "لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش"[2]، وبالقطع كلنا نعلم عن محمد الفاتح القائد الفذ العظيم فاتح القسطنطينية، ولكن للأسف الشديد قل من يعلم عن ذلك الرجل الذي عزز الفكرة في رأس الفاتح وأقنعه تمام الإقناع أنه هو المقصود بهذا الحديث، وأنه هو الذي سيكون الفاتح إن شاء اللهّ.

---

(1) على حسون، تاريخ الدولة العثمانية.

(2) مسند الإمام أحمد (4-335).

أتعلمون من هذا الرجل العظيم الذي يعتبره البعض الفاتح المعنوي للقسطنطينية [1]، إنه الشيخ العالم آق شمس الدين رحمه اللهّ، ولذلك فحري بنا أن نعلم عن هذا الرجل ولو القليل.

التعريف به

هو محمد بن حمزة الدمشقي الرومي، ارتحل مع والده إلى الروم، وطلب فنون العلوم وتبحر فيها وأصبح علمًا من أعلامِ الحضارةِ الإسلامية في عهدها العثماني، ونسبه يتصل بالخليفة الراشد أبي بكر الصديق. وُلد بدمشق عام 792هـ -1389م، حفظ القرآن وهو ابن السابعة، درس في أماسيا[2]، ثم حلب ثم أنقرة، وتُوفي عام 1459م، وهو الذي علّم الفاتح ورباه[3].

---

(1) علي الصلابي الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص 129.

(2) أماسيا: وتقع في شمال شرق الأناضول، وهناك بلدة أخرى تسمى أماسيا تقع إلى الجنوب الشرقي من أزمير.

(3) المراجع السابق ص 129، 130.

وقفة

وهنا لا بد أن نقف وقفةً مهمةً في تربيةِ العظماء في الدولة الإسلامية، بل في التاريخ الإسلامي قاطبة ستجد أن من حقق إنجازًا أو فتحًا عظيمًا لا بد أن تتوافر فيه عدة شروط؛ أولها وأهمها أن يُربى على طاعة اللهّ تعالى، ومن هؤلاء كان محمد الفاتح رحمه اللهّ، حيث أحاطه والده بالعلماء، بل كان شديد الحرص به حتى إنه ختم القرآن الكريم صغيرًا فأرسل إليه أكثر من شيخ إلى أن أتم حفظ القرآن كله في وقت يسير[1].

(1) فيُذكر في هذا الصدد أن محمد الفاتح قد تأثر بالعلماء الربانين بشدة منذ طفولته ومن أخصهم العالم الرباني أحمد بن إسماعيل الكوراني وهو مشهود له بالفضيلة وكان مدرسًا للفاتح في عهد مراد الثاني فقد أرسل إليه والده عددًا من المعلمين ولم يمتثل لأمرهم ولم يقرأ شيئا حتى إنه لم يختم القرآن فكلب السلطان مراد رجلًا له مهابة فأرسل الشيخ إسماعيل الكوراني فجعله معلمًا للفاتح وأعطاه قضيبا يضربه به إذا خالف الأمر، وبالفعل أتى الفاتح ففال له أرسلني والدك لتعليمك والضرب إذا خالفت أمرى فضحك الفاتح ظنًا منه أنه لن يفعل فضربه الشيخ الكوراني في هذا المجلس ضربًا شديدًا حتى خاف منه وهابه مهابة شديدة وحفظ القرآن كله في وقت يسير.

أما الشيخ آق شمس الدين الذي كان يُدرِّس للفاتح العلوم الأساسية في هذا الزمن وهي: القرآن والسنة النبوية والفقه والعلوم الإسلامية واللغات (العربية- الفارسية- التركية) وكذلك في مجال العلوم العلمية من الرياضيات والفلك والتاريخ والحرب، وكان الشيخ آق شمس الدين من الذين أشرفوا على السلطان الفاتح عندما تولى إمارة مغنيسيا ليتدرب على إدارة الولايات وأصول الحكم[1]، فمراد الثاني والد الفاتح كان حريصًا على تفقيه الابن كما تربى هو وكذلك أسلافه عملًا بوصيةِ عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية.

خلاصة ما أود قوله هو أن العثمانيين قد اهتموا بتربية الأبناء تربية إسلامية على طاعة اللهّ تعالى، كما أنهم اهتموا بالعلماء، فشيخ مثل الشيخ آق شمس الدين يُعلِّم الفاتح كل هذه العلوم فلا نعلم من أي شيء نتعجب.. هل من الشيخ الذي يعلِّم كل هذا، أم من الفاتح الذي تعلَّم من الشيخ كل ذلك؟!

(1) علي الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص 130.

ومن أبرز الأمور التي ركز عليها الشيخ في تربية الفاتح -وخصوصًا منذ الصغر- هي إقناعه بفتح القسطنطينية وأنه هو المقصود من الحديث الشريف "لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش[1]"، وبالفعل كانت قناعة الفاتح منذ الصغر أنه هو من سيفتح هذه المدينة الحصينة وأنه نعم الأمير الذي سيوقف زحف النصارى من هذه المدينة التي تبث الفتن والسموم، وتفت في عضد الدولة في كل وقت وعلى مر التاريخ، فأهلها نصارى وعلى عقيدة، أي أنهم ليسوا من أولئك المنتسبين للنصرانية وفقط، بل بعقيدة من بينها تدمير أي دين مناوئ للنصرانية وعلى رأسه الإسلام أي ممن يدخلون في قوله تعالى: **"وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ"**، ولذلك كانت تحركاتهم من هذا القبيل حيث تشويه الإسلام والعمل على إضعافه؛ ولذلك كان اهتمام الفاتح من أول يوم في حكمه بفتح هذه المدينة، وفقًا لما تعلم على يد شيخه آق شمس الدين.

(1) مسند الامام احمد (4-335).

فتح القسطنطينية

تحرك الفاتح بجيش عظيم إلى المدينة الحصينة وبدأ القتال الشديد الذي ظهرت فيه قوة المسلمين وبسالة المدافعين من البيزنطيين، الوضع الذي جعل البعض يشعر أن الأمر مستعصي عليهم، وأنها لن تفتح بل في بعض الأوقات كان هناك انتصار مؤقت لصالح البيزنطيين، الذي أبهجهم، وذلك بنجاح دخول أربع سفن[1] أرسلها البابا إليهم، أو الجنويون تحديدًا مما رفع الروح المعنوية لهم، فهنا اجتمع الأمراء والوزراء في حضرة الفاتح وقالوا له صراحة: "إنك دفعت بهذا القدر الكبير من العساكر إلى هذا الحصار جريًا وراء كلام أحد المشايخ – يقصدون آق شمس الدين– فهلكت الجنود وفسد الكثير من العتاد، ثم زاد الأمر على هذا بأن جاء عون من بلاد الإفرنج للكافرين داخل القلعة ولم يعد هناك أمل في هذا الفتح[2]"، فأرسل السلطان إلى الشيخ في خيمته يسأله عن الحل، فأجاب الشيخ: "لا بد من أن يمن اللهّ بالفتح"، فلم يقتنع السلطان بهذا الجواب فأرسل وزيره مرة أخرى ليطلب

(1) وفي بعض الروايات "خمس سفن" راجع كلامنا عن الفاتح.

(2) أسعد الخطيب– البطولة والفداء عن الصوفية ص 146.

الجواب من الشيخ الذى رد برسالة إلى تلميذه يقول فيها: "هو المعز الناصر، إن حادثت لكم السفن قد أحدث في القلوب التكسير والملامة وأحدث في الكفار الفرح والشماتة، إن القضية الثابتة هي أن العبد يدبر واللهّ يقدر والحكم للهّ، ولقد لجأنا إلى اللهّ وتلونا القرآن الكريم، وما هي إلا سنة من النوم بعد وقد حدثت ألطاف اللهّ تعالى فظهرت من البشارات ما لم يحدث مثلها من قبل"، فكان خطابه هذا مطمئنًا للسلطان الذي به تذكر تعاليم الشيخ والتوكل على اللهّ، وأنه يأخذ بالأسباب ولا يركن إلى المتخاذلين من الذين معه، والاستعانة لا تكون إلا باللهّ وليس بدعم وصل إلى أرض العدو، فهؤلاء لا يغنون عنهم شيئًا إن أراد اللهّ الخير لنا والنصر حليفنا[1].

وعلى الفور قرر مجلس الحرب العثماني الاستمرار في الفتح بعد أن كان البعض يريد أن يعاود الأدراج وعلى رأسهم خليل باشا المتهم بتعاونه مع الأعداء [2].

(1) علي الصلابي، محمد الفاتح ص 129.

(2) علي الصلابي، محمد الفاتح ص 129.

وبالفعل ظهرت تدابير اللهّ في خلقه إذا رذت السماء ردًا خفيفا كأنما ترش الأرض رشًا فخرج السلطان من خيمته ورفع بصره إلى السماء وقال: "لقد أولانا اللهّ رحمته وعنايته فأنزل المطر المبارك في أوانه فإنه سيُذهبُ الغبار ويُسَهِلُ لنا الحركة"[1]، فهذا هو اليقين في اللهّ وحسن التوكل عليه، وتلك هي القلوب الثابتة، التي تربت على أيدي العلماء الكرام الذين شربوا العلم ونهلوا منه.

وبعد أن قرر السلطان الاستمرار في الفتح بناء على نصيحة ومشورة الشيخ آق شمس الدين، وكان اليوم الحاسم، هو يوم 29 مايو عام 1453م سنة 857 هـ، اليوم الذي فتحت فيه القسطنطينية ودُكَّت أسوارها دكًا دكًا، فأراد السلطان أن يكون شيخه بجواره فأرسل يستدعيه لكن الشيخ كان قد طلب ألا يدخل عليه أحد بالخيمة ومنع الحراس رسول السلطان من الدخول، فغضب الفاتح وذهب بنفسه إلى خيمة الشيخ ليستدعيه، فمنع الحرس السلطان من دخول الخيمة بناء

(1) المرجع السابق نفسه.

على أمر الشيخ، فأخذ الفاتح خنجرًا وشق جدار الخيمة في جانب من جوانبها ونظر إلى الداخل فإذا بشيخه ساجد على الأرض، ولحيته البيضاء تعكس مع شعره كالنور، ثم رأى السلطان شيخه يقوم من سجدته والدموع تنحدر على خديه، فقد كان يناجى ربه ويدعوه بإنزال النصر ويسأله الفتح القريب[1]، وعاد السلطان عقب ذلك إلى مقر قيادته ونظر إلى الأسوار المحاصرة فإذا بالجنود العثمانيين قد أحدثوا ثغرات بالسور وتدفق منها الجند إلى القسطنطينية [2] ففرح السلطان بذلك وقال: "ليس فرحي لفتح المدينة، إنما فرحي بوجود مثل هذا الرجل في زمني"[3].

ويذكر الشوكاني أن الشيخ آق شمس الدين هو الذي حدد للسلطان يوم الفتح الذي فُتحت فيه المدينة، وكان النصر المبين العظيم.

---

(1) راجع العثمانيون في التاريخ والحضارة.

(2) المرجع السابق.

(3) الشوكاني- البدر الطالع (2-167).

فهذه هي مكانة العلماء، وهذا هو فضلهم، فهل نجد في عصرنا الحالي أمثال آق شمس الدين؟ وهل نجد من يقدِّر قيمة العلماء؟ بل هل نجد أصلًا من يقدِّر قيمة العلم؟!

الغازي محمد الداغستاني

إن العلماءَ هم ورثة الأنبياء، وهذا مصداق لقوله ﷺ: "إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر"[1]، وهذا ليس فضل وتكريم من العبث حتى نقول إن هذا عالم وانتهى الأمر، ولكن ذلك لأن العلماء الحق يتحركون ويحركون الشعوب نحو الصواب، وهذا هو ما يرفع قدرهم، ويزيد مكانتهم، ويخلد أسماءهم إلى أبد الآبدين، فهم بحول الله بغية العارفين، ومرشدو التائهين، وسبيل الحائرين، فيوجهون الشعوب نحو الخلاص من الظلم، والثورة على الظالمين، والجهاد ضد المحتلين الغاصبين، ولهؤلاء في التاريخ أمثال كثر، نراهم اليوم مثالًا يُحتَذى به لعل علماء اليوم يتحركون بقول الحق ولا يخافون في الله لومة لائم، ولا سجن ظالم.

(1) رواه الترمذي وغيره وصححه الألباني.

فوضع علماء اليوم مأسوي محزن مخزي، يُرثَى له، كلٌ يخافُ على مكانه ويخشى مطيةَ الحق أن يمتطيها، فيؤثر السلامة ويتورع ويزهد في نفسه محدثًا الناس عما فوق السماء وما تحت الأرض دون الخوض فيما بينهم، فينسج لنفسه خيالًا أنه بذلك قد بلغ وما بلغ، وأنه بذلك أدى ما عليه وما أدى، فدوره الحقيقي ليس تعريف الناس العقيدة وفقط، ولا تعليمهم فقه الصلاة والصيام والحج وفقط، ولكن مع هذا كله، تعريفهم أين الحق من الباطل، وإخراجهم من غياهب الفتنة إلى شواطئ الأمان، وإرشادهم إلى أي طريق يسلكون، أإلى العلماني الذي يريد أن يحكم، أم إلى الحاكم المتجبر بقوة جيشه، أم إلى الشيعي الذي يقتل السنة، فالعالمُ ما سُمي عالمًا إلى لعلمه الذي ينفع الناس في وقت الفتن، وليس في وقت البحبوحة، فإذا تراخى فما استحق يومًا تعلمَ العلمِ، وما استحق يومًا أن يكون في مصاف العلماء.

ومن هؤلاء العلماء الذين عَلِمُوا وعَمَلوا هو الغازي محمد الداغستاني رحمه الله، الذي بذل الغالي والنفيس حتى آخر نفس في حياته.

التعريف بالشيخ

فهو الشيخ الغازي محمد الأواري الداغستاني الشهيد العلامة المجاهد في سبيل الله الغازي محمد، كان أبوه من قرية كيمرة، ثم هاجر منها إلى قرية (أونصوكول) وتوطّن فيها وولد هنالك الشيخ محمّد، فلمّا ترعرع وبلغ الرشد أخذ يحصّل العلوم والفنون، وقرأ على الأعلام المشهورين كالعلامة الشهير سعيد الهركانى وغيره، وخرج عالمًا محققًا، وفاضلًا، وآوى بعده إلى قرية أبيه كيمرة وصار فيها إمامًا وصدرًا وشرع يدرِّس المحصّلين ويفيد الطالبين حتى اجتمع لديه جمّ غفير، وكان فيما بينهم من تلاميذه (الشيخ شامل أفندي) وهو صديق له.[1]

الوضع آنذاك

كان لهزيمة الباب العالي[2] في قفقاسيا بالغ الأثر على أهل القفقاس، حيث لم يقف الشعب المسلم فيها مكتوف الأيدي مكلوم، بل وقف

(1) راجع، نزهة الاذهان في تراجم علماء داغستان.

(2) الدولة العثمانية.

موقفًا يُسجّل في التاريخ على كونه عظيمًا شريفًا، إذ بدأ الجهاد الشعبي الذي قاده كبار العلماء في ذلك الوقت، ومن بينهم الشيخ العالم الجليل الغازي محمد الداغستاني - رحمه الله- وغفر له، إذ خاض نضالًا مريرًا.[1]

وكان هدف الشيخ الغازي محمد هو قطع سلطنة وهيمنة الدّولة الروسيّة عن هذه البلاد الداغستانيّة وتوسيع دائرة الإسلام فجاهد الكفار وقابلهم بالعساكر التي تبلغ قدر ثمانية آلاف، حتى وصلوا إلى بلدة (تارغو) وهاجموا الروس الذين يسكنون في الاستحكامات التي فوق جبل تارغو، فتلف من عساكره خلق كثير بسبب وقوع النار على مخزن البارود ومن بقي منهم بعده ذهبوا إلى ناحية جاجان (شيشان)، فدخل منهم خلق كثير تحت طاعته حتى وصلوا إلى ناحية (طبسران) وحاصروا بلدة (دربند)، وبعد مدّة رجعوا إلى ناحية أوار، ثم تحركوا

(1) علي حسون، العثمانيون والروس ص 115 بتصرف.

ثانيًا إلى قلعة (قيزلار)، وأغاروا أموال الكفار ثمّ وصلوا أيضًا إلى ناحية جاجان فقابلهم الرّوس الذين في قرية (بيان) فحدث قتال، قُتل فيه من الروس وتُوفي من عساكر الشيخ قدرٌ، ورجع بعده إلى ناحية أوار وكان ذلك سنة 1247م.

ثمّ إن الرّوس في الأخير حاصروهم في قرية كيمرة بعساكر جرّارة تحت قيادة (بارون روزين) فاستشهد الغازي محمد هنالك - رحمه الله- تعالى، والذي أرَّق منام الروس لفترة، وبقي رفيقه الشيخ شامل بين القتلى حيّا - كما سيأتي- وكان ذلك سنة 1248م في جمادي الآخر بُعَيْدَ عصر يوم الاثنين منه.[1]

ولّما قتلوه حملوا جسده وطرحوه فوق جبل تارغو وجففوه وحفظوه مدة مديدة ثمّ دفنوه، وفي زمن الإمام شامل أفندي أرسلَ من ينبش قبره وحملوه إلى كيمرة ودفنوه فيها رضى الله عنه.[2]

---

(1) راجع، نزهة الأذهان في تراجم علماء داغستان.

(2) المرجع السابق، ذكره العالم الشهير محمد طاهر القراخى في كتابه (بارقة السيوف الجبليّة).

وكان ظهور الشيخ الغازي محمد، الذي دعا الناس إلى إحياء الشريعة ونصرة الدين ومهّد لمن بعده سبيل الجهاد ووسّعه، وسعى سعيًا بليغًا على محو الرسوم الباطلة والعادات المخالفة للشريعة العادلة، حتى اجتهد على كسر شوكة أمراء أوار الذين يوالون الكفار ولا ينقادون للحق والشريعة ويقدّمون في المحاكمة الطاغوت والعادات دون تحكيم الشرع، ولقد ألّف في ذلك الشأن كتابًا صغيرًا سمّاه (إقامة البرهان، على امتداد عرفاء داغستان)، وقرظه علماء عصره ولا سيّما أستاذه سعيد الهركانى، وكتب الشيخ الغازي محمد على ظهر كتابه هكذا[1]:

سيحكم ربّ الحكم بين محمّدٍ ... ومن أسّس الرّسم الخسيس المكابر
غدًا يعلمون المنجز الوعد منهما ... إذا عاينوا يومًا عبوس المناظر
إذا فاز بالحبل المتين المتابع ... لأحمد ما فازوا بأضعف ناصر
لقد أبعد الرّحمن قومًا يحبه ... عن الكوثر البيضاء يوم السّرائر
إذا كان ذو رسم عديلًا لشارع ... فلا فرق فينا بين برّ وفاجر
فلم بُعِثَتْ رُسُلٌ وسنّتْ شرائعُ ... وأُنزل القرآن بهذي الزواجر

(1) المرجع السابق.

وكان الشيخ الغازي محمد أديبًا مقتدرًا في الكلام المنظوم والمنثور، وقد اعترف على ذلك معاصره العلامة يوسف اليخساوى، وله عدد من القصائد لا مجال لعرضها الآن[1].

وقفة

إن الشيخ الغازي – رحمه الله– كان رجلًا عالمًا علامة بارعًا في العلوم وعارفًا ربّانيا مكاشفًا مستقيما في دين الله، ورغم هذا كان مجاهدًا في سبيل الله لمحض إعلاء كـلمة الله، فكان قائمًا على الحق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فكان المجدد المجتهد الباهر الذي لم يخف في الله لومة.

ولكن ناهيك عن هذا كله فإن أفضل ما فعله الشيخ – رحمه الله– أنه خلَّف رجالًا تربوا على الجهاد مع العلم، على حب دين الله والدفاع

---

(1) منها القصيدة التي مطلعها

أيا غربة الإسلام قد رحت راحلًا فسلّم على من في التراب ملحّدا

نبي كريم هاشمي مشفع رسول عظيم القدر أعني محمّدا

عنه، على التضحية بالغالي والنفيس لأجل إعلاء كلمة الله، وكان أبرز هؤلاء هو الشيخ شامل الداغستاني – رحمه الله– وغفر لهم جميعًا.

بل فعل أكثر من ذلك وهو شيء قد يغفل عنه كثيرون من المؤرخين ألا وهو وضع اللبنات الأساسية لمن يأتي بعده، فعلى سبيل المثال عندما حقق صلاح الدين الأيوبي النصر المبين في حطين فلم يكن هذا النصر ثمرة جهاد صلاح الدين وحده بل كان ثمرة رجال عظماء سبقوه ووضعوا لبنات النصر التي جاء صلاح الدين وحصدها، وكُلَلَ هذا بنصر من الله مبين، ومن هؤلاء السابقين على صلاح الدين مودود بن التنتوكين – رحمه الله، وكذلك عماد الدين زنكي رحمه الله، وكذلك نور الدين محمود رحمه الله، حتى جاء صلاح الدين وحصد جهدَ وجهادَ كل هؤلاء، مع بذل ما بذله هو أيضًا، فرحمهم الله جميعًا.

وكذلك الأمر بالنسبة للشيخ الغازي – رحمه الله– فهو واضع لبنات أساسية لمن جاء بعده في الجهاد، وزلل لهم عقبات كانت من الممكن أن تواجههم، وأكبرها وأبرزها هي تأسيس العقيدة لدى

المجاهدين وبث حب الجهاد فيهم، فحصد الشيخ شامل ومن قبله حمزة ثمرات جهد الشيخ الغازي رحمه الله.

وأختتم بمكتوب كتبه الإمام الغازي محمّد إلى القرى والنواحي حين الخروج إلى الغزوة يوضح بجلاء علم الرجل وحرصه على الجهاد ونصرة دين الله تعالى بفهم ووعي كبيرين، حيث يقول:

بسم الله الرّحمن الرّحيم هو الباري تعالى والمستعان:

جرى أمرنا ونحن عباد الله تعالى أولو بأس شديد قاهرون فوق كل جبار عتيد إلى كل من يعاند شريعة المختار ويخالف سيرة الأبرار، سلام على من يستمعون فيتّبعون أحسنه ويتّخذون الإسلام دينهم، آمين.

(أمّا بعد) فيا أيّتها النفوس الخبيثة اعلموا أنا بذلنا أرواحنا ومهجنا لإعلاء كلمات الله، وشرفنا نفوسنا ابتغاء مرضاة الله، فإن كان لكم كيد فكيدون، ثمّ لا يكن أمركم غمة ولا تنظرون، وإذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين، فإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلِمون ولا تُظلمون، وإلّا فإذا خلعت البردة جلبابها لبست الحرارة أثوابها فلنأتكم

بجنود لا قِبل لكم بها ولنخرجكم من قراكم أذلّة وأنتم صاغرون، ولنذيقكم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلّكم ترجعون، خرجنا ونحن قوم أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين، لإعانة إخواننا المؤمنين التائبين العابدين سلام عليكم إلى يوم الدين.

(وبعد) فيا أيّها الإخوان الكرام، اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلّكم تفلحون، عسى الله أن يكفّ بأس الذين ظلموا أنّ الله لا يصلح أمر المفسدين، واصبروا حتى نأتي إليكم ولا تطيعوا أمر المفسدين، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون والسلام على من اتبع الهدى وترك الباطل، فمن وجدناه لا يعلم الفاتحة والتشهد وسائر أركان وشروط الصلاة ومعنى كلمتي الشهادة والإيمان والإسلام والأقوال والأفعال المكفرة، فذلك نجزيه بما يليق هذا، والسلام إلى يوم الحشر والقيام) انتهى.

❋ ❋ ❋

الإمام شامل

هو شامل بن دِنْكَاوْ محمّد الكمراوىّ الأوارىّ الداغستاني الشهير بإمام شامل، وُلد – رحمه الله– في حدود سنة 1212 هـ– ١٧٩٧م، في قرية كيمرة من مديرية خونزاخ على نهر قُوِيْسُوْ، وهي قرية ذات ثمار وعـنب ورطب، ويعد هو الإمام الثالث بعد الإمام محمد وحمزة.[1]

وقد أخذ في حداثة سنّه عن العالم المتبحّر الهركانى وهو من علماء عصره، وكذلك عن صَاحَبَه ورفيق دربه المقدام الغازي محمد الشهيد[2] وسافر معه إلى يراغ العليا في ناحية كوره لتلقِّى الطريقة النقشبنديّة[3] فأجازهما اليراغي وكرّا راجعين إلى كيمرة.[4]

---

(1) راجع نزهة الأذهان في تراجم علماء داغستان–محمد موسى الشريف، عظماء منسيون ص 44.

(2) راجع كتابنا ص

(3) أرادوا أخذها عن الشيخ محمد أفندي عن الشيخ خاص محمد الشرواني عن إسماعيل الكوردميرى عن البغدادي خالد الشهير، وقد كان شامل ومن معه من الصوفية النقشبندية الذين اشتهروا بالجهاد، أنهم من أصفى الفرق الصوفية ومن أقلها بدعًا، وأكثرها حرصًا على الدين.

(4) المرجع السابق.

داغستان

وداغستان هي جزء من منطقة القوقاز الشمالي الذي يضم معها الشيشان والأنجوش وأوسيتيا، وهذه المنطقة مواجهة تمامًا للروس، وهناك القوقاز الأوسط- هو جمهورية جورجيا الآن- والتي كانت تُعرف عند المسلمين بالكرج، وهناك القوقاز الجنوبي الذي فيه أذربيجان وأرمينيا.

والقوقازيون غزاة المسلمين الأوائل قد ثبتوا في جنوبها وفي مناطق في شمال غربه، لكن لوعورة المنطقة، ولكثرة طوائف، وأديان، ومذاهب أهلها لم يستطع المسلمون أن يتحركوا شمالًا، وغاية ما فعلوه أن سراقة بن عمرو الذي كان في زمن الخليفة الأُمَوي مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية استطاع دخول (تفليس[1])عاصمة جورجيا اليوم.[2]

---

(1) تبليس.

(2) وفي الحديث عن انتشار الإسلام هناك فإن التتار في مرحلة تحولهم إلى الإسلام قد نشروه في أجزاء من الشيشان والداغستان وأنجوش وعندما قويت شوكة بني عثمان فقد أرسلت الدولة العثمانية في مرحلة متأخرة نسبيًا دعاة إلى الشيشان وأقنعوا جماعات من الشيشانيين بالتحول إلى

إجلال وتقدير لمجاهدي الشيشان

ومنذ أن دخل الشيشانيون إلى الإسلام عَمَدوا إلى الدفاع عن الإسلام ورفع لوائه إلى يوم الناس هذا، ولم تفلح معهم كل محاولات التغريب والتنصير، وهناك شعوب دخلت قبلهم في الإسلام لكنها أُجبرت على التحول إلى النصرانية عندما اجتاح بلادهم الروس القياصرة مثل شعب الكرج (جورجيا) التي دخلها الإسلام منذ عصر التابعين، لكن الشيشانيين ثبتوا ولله الحمد.[1]

احتلال روسيا للقوقاز

تقدمت الدولة الروسية لتحتل القوقاز وكان يدفعها سببان رئيسان: أولهما أن القوقاز طريق إلى التركستان فإذا أخذوا القوقاز سهل

الإسلام بعد أن كانوا وثنيين وكان هذا من قرابة ثلاثة قرون من الآن، وكان ذاك عملًا رائعًا في منطقة وعرة ضخمة بها أشجار بلوط ضخمة يبلغ ارتفاع بعضها مائتي وثمانين قدمًا ومحيطها خمسة وثلاثين قدمًا!

(1) محمد موسى الشريف، عظماء منسيون ج1 ص 46.

عليهم الاستيلاء على التركستان، ومن ثم يتقدمون لأخذ الهند من المغول المسلمين– وهذا هو الدافع الآخر– وفعلًا ما إن أسقطوا دولة شامل إلا ودخلوا طشقند عاصمة أوزبكستان إحدى جمهوريات التركستان، ولم يستغرق منهم هذا سوى سنة واحدة فقط بعد سقوط القوقاز[1].

شامل مع الإمام الغازي محمد

ذهب البطلان لتلقي العلم كما ذكرنا آنفًا، وقد اختفوا لفترة وعكفا على العلم والعبادة، ثم ظهرا يعظان الناس، ويجاهدان العادات الموروثة عن الآباء التي لا يتزن عليها الكتاب والسنّة ولا توافقها المصالح من شرب الخمر الشائع حينئذ، وإتيان الفحش والظلمات التي لا يكاد النور والهدى من بينها يبين، حتى جلبا قلوب الناس إليهما وأحبّوهما، فتصدّى المقدام الشجيع (الغازي محمد) للإمامة، وحشد الجموع لنصرة الدّين وأخذ البطلَ شامل عضدًا له وعونًا، وشامل لا يفتر عن أوامره حتى

(1) المرجع السابق ص 47.

عهد الغازي محمد قيادة الجيش حينما هاجم قريتي (أونصوكول) و(خونزاخ) شامل فأظهر في تلك المصادمات شهامته ونجابته[1].

وفاة الغازي محمد ونجاة الإمام شامل رحمه الله

لما ذاع صيت الإمام محمد وجنده ومع خيانة أمراء "أوار"، نجح الروس بناء على هذه الخيانات في معرفة مكان المجاهدين؛ فحاصرت الدّولة الرّوسيّة بعساكرها الكليّة الإمام الغازي محمد ومعه أتباعه وأشياعه في مضيق (كيمرة)، وبعد قتال اُستشهد الغازي محمد – رحمه الله– وأُصيب شامل بجراح، وصُرِعَ بين القتلى متماوتًا، فظن الروس وهم يتفقدون الموتى أن شامل قد وافته المنية فتركوه، حتى إذا أظلم الليل تمشّى رويدًا وهو مصاب بجراح بليغة إلى أن وصل إلى مكان آمن ومنه إلى أونصوكول فاندمل جرحه وبرء ولحق بالإمام الثاني حمزة واشترك في نحر أمراء (أوار)[2].

---

(1) نزهة الأذهان في معرفة علماء داغستان.

(2) نزهة الأذهان في معرفة علماء داغستان.

ثم إن شامل استطاع أن يجمع فلول الداغستانيين ويبتدئ الجهاد ضد الروس سنة 1834 إلى سنة 1839 وفي تلك السنة دل عليه بعض أمراء الداغستان الخونة وحاصره الروس بقوة ضخمة، فيها مدافع لم يكن يملك الداغستانيون شيئًا حيالها حيث كان الروس يدكون البيوت دكًا دكًا، لكن شامل بفضل الله استطاع الهرب أيضًا ليعد العدة من جديد.

الإمام شامل

بعد استشهاد الإمام حمزة احتشد أهل الحلّ والعقد من جميع قرى أوار في بقعة (عالادا) التابعة "لبوزره" وأقاموا شامل إمامًا وقائدًا عامًّا لطرد الرّوس عن داغستان وإحياء الدين الإسلامي ونشر العلم وإقامة العدل والميزان، فأخذ البطل على عاتقه جميع شئون الملّة وهجر الكرى[1] وأقام القضاة والقواد وجمع الجنود وأيّدهم ونظمهم وفق الزّمان والمكان وألف شملهم وألغى جميع الرسوم الباطلة الزائغة حينئذ، وحارب أوّلا

(1) النعاس.

جميع المتغلبين الذين صالحوا الرّوس وشايعوهم حتى أقصاهم وفتك بهم فصفيت له (أوار ستان)، فبث الجهاد، وهاجم الرّوس حتى اضطرّهم للجلاء عن معظم جبال داغستان بعد ما كانوا أقاموا بها حصونًا وشيّدوا بها بروجًا لا يرام لها.

الخيانة

وقد تعرض لخيانة جديدة من أمراء أوار حيث حاصرته الجند الروسية ودكوا البيوت دكًا إلا أنه بفضل الله استطاع الهرب مرة أخرى، وبعد تفكير ومراجعة لأحواله في ظل خيانة أمراء الداغستان المتتالية، قرر التوجه إلى الشيشان، وهي معقل حصين جبلي كان أهله أقوى إيمانًا من الداغستانيين وأوفى ذمة، وطبيعة الشعب الشيشاني الصعبة لا تسمح لهم بأن يرضخ بعضهم لبعض فكانوا بحاجة لرجل غريب يسلِّمون له قيادتهم، فكان هذا هو الإمام شامل الذي استطاع أن يصل إلى القسم الجبلي من الشيشان، وجمع حوله فلول أتباعه من الداغستانيين الذين هُزموا من الروس، وبايعه أمراء الشيشان وقبائلهم، وأعلنوه إمامًا عليهم له حق السمع والطاعة والجهاد معه في سبيل الله تعالى[1].

(1) محمد موسى الشريف، عظماء منسيون ج1 ص 49.

حملة دارجو وما بعدها

بعد أن تمت مبايعة شامل، لم يتوان لحظة واحدة فانطلق يطهر الأرض من دنس الروس بكل ما أوتي من قوة، حتى أثار الذعر في نفوس القيصر نفسه الذي استشاط غضبًا لمّا علم بهروب شامل من الكمين الذي نُصب له ومن معه. وزاد غضبه غضبًا على غضب لمّا علم ما فعله من جهادٍ في الشيشان ضد الروس ومن أعداد القتلى الروس الذين يتزايدون يومًا بعد يوم بجهاده ومن معه رحمهم الله، فعلى الفور طلب القيصر من قائده هناك حسم المعركة مع شامل، فأرسل الجيوش إلى الشيشان وعلى رأسها أعظم القادة وأكثرهم خبرة في الحروب مع الداغستانيين ومع نابليون، فقاومهم شامل، ومن معه حتى اضطر القيصر لإرسال حملة عُرفت بحملة دارجو وهي البلدة التي كان يتحصن فيها شامل وأمراؤه، وكان حولها غابات كثيفة جدًا، وكان قائدُ الحملة يُسمى "جراد" لكنه لم يتمكن من الوصول إلى دارجو حيث كمن له جيش شامل على أشجار البلوط الضخمة حيث يقومون برش الزيت

المغلي على الروس، ويرمونهم بالحراب والبنادق فحصدوا كثيرًا منهم وفشلت الحملة وعاودت أدراجها بعد خسائر ثقيلة.[1]

ثم جرت مناوشات بين شامل وجراد متفرقة انتصر شامل فيها بفضل الله، وبعد ثلاث سنوات، أي في سنة 1845م أرسل القيصر حملة ضخمة قوامها ثلاثين ألف رجل بقيادة ضابط روسي فذّ اسمه روندسوف، فمكر به شامل حيث جعله يتقدم في الأدغال إلى أن وصل إلى البلدة التي كان يتحصن بها شامل، وترك فيها مجموعات قليلة لمقاومة روندسوف الذي تغلب عليها بسهولة حتى يقع بالفخ المنصوب له، وسوى بيوت البلد بالأرض بمدفعيته الضخمة، وفي طريق عودته، حيث كان فرحًا مسرورًا بما صنع كان الشيشانيون ينتظرون جيشه في الليل فانقضوا عليهم كالأسود، وقتلوا منهم خمسة وعشرين ألفا، أي لم ينج إلا خمسة آلاف نصفهم جرحى، وقُتل قواد روس كبار في المعركة.[2]

---

(1) المرجع السابق ص 49، 50.

(2) المرجع السابق ص 50،51.

أخطاء الإمام شامل

ويذكر الدكتور محمد موسى الشريف أخطاء الإمام شامل، وأردت أن أوردها هنا حتى نتعلم منها فيما هو قادم، ونتدارك أي خطأ من الممكن أن نقع فيه بالمستقبل، وهذه هي مهمة التاريخ، فهو معلم لما هو قادم، فيذكر قائلًا: "فقد كان رجلًا عسكريًا قويًا، شديد الشكيمة، صعب المراس، فكان يقسو أحيانًا على أتباعه ويفرض حركته المريدية على الشيشانيين، فكان هذا يوجد نوعًا من التململ، فهذا خطأه الأول، وثاني أخطائه الكبيرة أنه كان هناك رجل داغستاني اسمه مراد عدو لشامل في داغستان فأصلح بينهما الشيشانيون وصار نائبًا لشامل في الداغستان، وكانت هناك طائفة من أمراء الداغستان حسدة لمراد فأوغروا صدر شامل عليه وأقنعوه أن يولي ابن غازي محمدًا ولاية العهد من بعده ففعل شامل وأخذ البيعة من الأمراء الشيشانيين والداغستانيين، وهذا الأمر أغضب الحاج مراد جدًا فاستقل عن شامل والتحق بالروس، وهذه خيانة كبيرة، لكن الحسد والحقد الذين استوليا على مراد وسوء التصرف من شامل أدى بمراد إلى هذا الذي صنعه، على

أن الروس بعد ذلك غدروا به وسجنوه ثم قتلوه، وهي آية أليمة لرجل دوّخ الروس عشر سنوات وكان له عمل جهادي جيد، لكن أعوذ بالله من الحقد والحسد."

نهاية الإمام شامل

ونتيجة للخيانات التي كثرت على شامل رحمه الله، وتوالي الحملات عليه من الروس حتى أن قيصر روسيا أرسل حملة عليها ابنه مباشرة وولى عهد القيصر في جيش فيه كبار القادة وثلاثين ألف جندي، كل هؤلاء توجهوا إلى بلدة صغيرة، فغطى الشيشان أبواب بيوتهم ونوافذهم بالطين فصارت البيوت كتلة واحدة، وغيروا سقوف بيوتهم إلى سقوف خفيفة رقيقة، وغطوها بالتراب لتبدو كأنها هي السقوف الأصلية، فكان الروس يقفزون فوق السقوف فيقعون في البيوت ليجدوا الشيشانيين المريدين أو المجاهدين في انتظارهم، فيعملون فيهم ذبحًا وقتلًا، فرجع الجيش خائبًا خاسرًا بسبب هذه الحيلة الذكية.

وقد استمر الإمام شامل في جهاده ضد الروس ما يزيد عن الخمسة وعشرين عامًا، صمد فيها صمود الأسود مع من معه إلا أنه لم يكن يستطيع أن يصمد أمام الخيانات وكثرة الحملات التي شنها الروس عليه أكثر من ذلك.

ففي نهاية المطاف قد حوصر حصارًا محكمًا وجل من معه خمسمائة من أتباعه فقط أمام جيش يقدر بأربعين ألف، فاضطر أن يستسلم للروس، لأنه رأى أن حقن دماء من بقي من أتباعه أولى له بعد أنه خانه عدد من أمراء الداغستان وخانته دولة الشراكسة القبرطاي، وسلم نفسه للروس سنة 1859 – بعد ممانعة كبيرة من بعض أتباعه- ولكنه انتهى الأمر إلى أن أُخذ إلى روسيا فبقي فيها مكرمًا تسع سنوات من قِبل القيصر والقادة إكرامًا لشجاعته، ثم طلب من القيصر أن يسمح له بالحج فوافق بعد تردد، فرافقته حملة روسية إلى أن خرج من حدودهم، فحج ثم نزل مدينة رسول الله ﷺ فاستقر فيها مجاورًا ثلاث سنوات، ثم انتقل إلى جوار ربه سنة 1871م بعد جهاد دام قرابة ثلاثين سنة، ووقف

صخرة شماء أمام أطماع القياصرة ونوايا التوسعية في المنطقة القوقازية والتركستانية[1].

ما بعد شامل

بعد استسلام شامل لم يستسلم الشيشانيون بل قاموا بثورات متتابعة، ثم إنه لمّا جاءت الدولة البلشفية انتقمت من الشيشانيين بقائدهم ستالين وبمساعدة الألمان فهجّرَ كثيرًا منهم، ثم عادوا إلى بلادهم سنة 1957م بعد هلاك ستالين، واليوم الشيشانيون ما زالوا يكبِّدون الروس الخسائر الفادحة، ولم تهنأ روسيا بالشيشان بعد شامل إلى يوم الناس هذا! لكنّ الشيشانيين سيهنأون بالنصر قريبًا إن شاء الله.[2]

(1) محمد موسى الشريف، عظماء منسيون ج 1ص 54:56.

(2) المرجع السابق ص 56.

خاتمة

إن سيرة الإمام شامل وترجمته – رحمه الله– كثيرة وشهيرة تُغني عن الإطالة والإسهاب، وقد أفرد النّاس في ذلك وترجموا إلى لغات أخرى، وأثنى عليه جميع الناس من علماء الأقطاع وأفضل ما نختم به بعضًا مما قيل عن شامل وأتباعه، حيث أثنى عليه أعيان الأمصار وجعلوه شيخ الإسلام وإمام الدّين ومجدّده، وإن ما جرى عليه في حروبه كلّها حقّ مطابق للشريعة العادلة.

وقد أثنى عليه العالم العلّامة إبراهيم الباجوري من علماء مصر، والعلّامة المحقق شهاب الدّين المرجاني القزاني وغيرهم.

وقال العلّامة حسن الدمياطي الشافعي المدرس في مكّة المكرّمة في رسالته التي ألّفها في سيرة الإمام شامل أفندي ما نصّه: "وبالجملة فما عليه الشيخ شامل هو الصواب وأحق بأن يتبع له من غير شكّ ولا ارتياب ومخالفه مفتر كذّاب ومعاندٌ غرّار"، وهذه رسالة صغيرة أرسل مؤلّفه المذكور إلى الإمام شامل حين كان حيًّا في المعركة التي وقعت في

قلعة (جوخ) سنة 1265 وقرظها علماء مكة كالعلامة أحمد بن محمد الدمياطي الشافعي المدرّس بالمسجد الحرام، والعلامة أحمد بن السيّد بثي الشافعي المدرّس بالمسجد الحرام، ومنهم كثير شهير.

وقد وصفت الكاتبة الأمريكية ليزا في كتابها "سيوف الجنة" الإمام شامل ومن معه من المجاهدين، وقالت فيهم: "إن الشيشانيين كانوا يتقدمون للمعارك مع الروس وهم يرتلون القرآن الكريم، وينشدون أنشودة الموت التي تبعث فيهم الحماس والقوة".

فرحم الله العلماء أمثال الإمام شامل الذين يعلمون حقيقة الدين حق المعرفة ولا يخشون في الله لومة لائم.

❋ ❋ ❋

سعيد بن المسيب

هو أبو محمد سعيد بن المسيب من قريش، ومن بني عمران بن مخزوم، ونسبه هو ابن المسيب، بن حَزَن، بن أبي وهب، بن عمرو، بن عائذ، بن عمران، بن مخزوم، بن يقظة، القرشي المدني، وأمه بنت الحكم بن أمية بن حارثة بن الأوقص السلمي[1].

أبوه وجدّه صحابيان من صحابة رسول الله ﷺ وهو من سادات العرب، وأهله وجده قوم ذو صلابة حتى أنهم يُعرفون من قصة مع رسول الله.

فيما يرويه علي بن زيد قال: حدثني سعيد بن المسيب بن حزن، أن جده (حزن) أتى النبيﷺ فقال: ما اسمك؟ قال: أنا حَزَنَ، قال: بل أنت سهل، قال: يا رسول الله، اسم سماني به أبواي، فَعُرِفتُ به في

(1) وفيات الأعيان| ج2 ص 262.

الناس، قال: فسكت عنه النبي عليه السلام، قال: فقال سعيد بن المسيب: ما زلنا نعرف الحزونة (غلاظة الأرض) فينا أهل البيت[1].

عروبته ومكانته أكسبته شهرة كبيرة بين العرب مما جعلته ذا مكانة عالية رفيعة القدر، وخصوصًا في وقت برزت فيه النزعة العربية عندما قامت الدولة الأموية في الشام.

مولده ونشأته

وُلد سعيد بعد خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد نشأ وتربى في مدينة رسول الله مهبط الوحي وموئل الهداية ومركز الإشعاع الإسلامي ومنار النور الإلهي ودار الهجرة، وتنزّل التشريع وتكوّن سنة النبي، حتى صارت عاصمة الخلافة في عهد الراشدين ومقر الصحب البررة الكرام فأصبحت مأوى الفقهاء ومجمع العلماء ومهد السنة ودار الفقه، فهي المدينة بكل ما تحمل الكلمة من معاني سامية يعلمها القاصي

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد | ج5 ص 119.

والداني، وقد تربى ابن المسيب في ظل هذا الزخم من العلم والعلماء والصحابة الذين تلقى عنهم الأحاديث والآثار فكان خير خلف لخير سلف، وقد كان لهذه النشأة أثرها الكبير في تكوين شخصية ابن المسيب وقوته في الحق واستقامته في السلوك وزهده وورعه وعلمه وجرأة الفتيا وسداد القول، حتى صار إمام التابعين وتاجًا في القرن الثاني الذي شهد له رسول الله بالخيرية، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم.. إلى آخر الحديث.

قرن اسمه مع رسول الله إلى يوم الدين

كثيرٌ من الناس يبحثون عن شرف كبير في الأمة، ولكن أي شرف يضاهي شرف أن يكون اسمك ملحق مع أسماء الصحابة ورسول الله ﷺ في حديث مرفوع عن النبي يتردد في الأرجاء إلى يوم الدين! فكثيرة هي الأحاديث التي تُروى عن سعيد بن المسيب، وذلك مثل الحديث: عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب رضي

الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: أول ما يُرفع من الأمة الأمانة وآخر ما يبقى الصلاة ورب مصل لا خير فيه"، وكذلك مثل حديث "حدثنا عبد الله بن عبد الله الأموي، قال: حدثنا الحسن بن الحر، قال: سمعت يعقوب بن عتبة بن الأخنس، يقول: سمعت سعيد بن المسيب، يقول: سمعت عمر بن الخطاب، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من اعتز بالعبيد أزله الله"، وكذلك ما روى عن ابن شهاب الزهري، عن أحمد بن المسيب، عن عثمان بن عفان، أن النبي ﷺ قال: إذا سمعتم النداء فقوموا فإنها عزمة من الله"، وكذلك في الحديث "عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، قال: قال النبي ﷺ: من اتقى الله عاش قويًا وسار في بلاده آمنا"، فهل بعد ذلك شرف، هل بعد ذلك سعادة، هل بعد ذلك مجد؟!

أهم الأقوال التي قيلت في حقه

قال الإمام أحمد بن حبان في الثقات بحقه: "كان من سادات التابعين فقها ودينا وورعًا وعبادة وفضلًا، وكان أفقه أهل الحجاز،

وأعبر الناس لرؤيا، ما نودي بالصلاة من أربعين سنة إلا وسعيد في المجلس".

والإمام الذهبي في تذكرة الحفاظ قال عنه: "هو الإمام شيخ الإسلام، فقيه المدينة، أجلّ التابعين، كان واسع العلم، وافر الحرمة، متين الدين، قوالًا بالحق، فقيه النفس".

وقد قال الإمام أحمد بن حنبل عنه: "سعيد بن المسيب أفضل التابعين".

أما الفقيه محكول، وهو فقيه الشام فقد قال في حقه: "طفت الأرض كلها في طلب العلم فما لقيت أحدًا أعلم من سعيد بن المسيب".

موقفه مع الحكام

كان – رحمه الله– جريئًا في الحق، لا يخشى في قوله الحق لومة لائم وإن كلفه ذلك حياته، أو ترتب على ذلك جلده، أو معاداة الأمراء والوزراء والحكام له، فهو لطالما يقول الحق ويُرضي الحق فلا يفرق معه

رضى العباد مهما وصلت مناصبهم ومراتبهم، بل كان يغضب في وجههم ويزأر بقول الحق ولا يتغاضى عن منكرٍ وكان يقول: "لا تملأوا أعينكم من أعوان الظلمة، إلا بإنكار من قلوبكم، لكيلا تحبط أعمالكم الصالحة".

موقفه مع عبد الملك بن مروان[1]

من أبرز المواقف في حياة هذا العالم الزاهد الذي قلَّ أن نجد مثله، فقد طلب عبد الملك بن مروان ابنته ليتزوجها[1]، وقبل أن نكمل الحدث

(1) هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية الأمويّ القرشيّ الذي يُلقب بأبي الوليد، وهو خامس الخلفاء الذين شهدتهم الدولة الأمويّة، ولد سنة 26 للهجرة، وتوفّي سنة 86 للهجرة، نشأ في المدينة المنورة مع عائلته حيث كان والده واليًا في عهد معاوية بن أبي سفيان، ودرس العلوم الإسلاميّة، وتقلّد عبد الملك بن مروان الحكم بعد وفاة والده عام 65 للهجرة، وذلك بعد أن شهدت البلاد فترةً صعبةً جدًا من عدم الاستقرار السياسيّ، حيث كانت الدولة مقسومة آنذاك إلى خلافتين، إلى أن وضع الخليفة أسسًا متينةً لدولته، حيث تمكّن من حماية حدودها وزيادة قوتها، ونشر رسالة الإسلام إلى أبعد من حدود هذه الدولة، وساعده في ذلك فتح بلاد المغرب بشكلٍ مطلق، وقد أوصى قبل وفاته بانتقال الحكم إلى ابنه وليد، وولاية العهد لابنه سليمان، وامتدّت فترة حكمه إلى ما يقارب العشرين عامًا.

نريد أن نقف وقفة صغيرة مع هذا الأمر، فأي شرف ممكن أن يناله المرء عندما يطلب أمير أو ملك ابنته للزواج، فأي قربة ستكون للمرء بذلك، وأي مكانة سينالها، وأي مناصب من الممكن أن يحصل عليها! وبالقطع سيكون هذا تفكير كثير من الناس وخصوصًا في زمننا هذا، بل والله وفي كل زمان ومكان، فالناس تنظر للأمور من باب الدنيا، على الرغم من أمر الدنيا كله من الدنو وليس العلو، فالمرء مهما علا شأنه فمصيره التراب، ولذلك فإن تفكير هؤلاء العلماء الزهاد ليس كمثل غيرهم من العوام.

فلما طلب عبد الملك بن مروان يد ابنة سعيد بن المسيب عن طريق الرسول الذي جاء إليه وأخبره بذلك، فما كان من سعيد – رحمه الله– إلا أن رفض طلب عبد الملك بن مروان؛ وذلك لانحرافه في سنة رسول الله ﷺ قائلًا لرسوله: "لست من حداثه"[2]، بل لم يكتف بذلك وقام بتزويج ابنته من طالب علم فقير.

---

(1) حلية الأولياء ج2 ص 169.

(2) من الحديث والكلام.

بل لم يكتف بذلك، ففي ذات يوم قدم عبد الملك بن مروان المدينة فامتنعت منه القائلة (لم يستطع أن ينام في القيلولة)، واستيقظ، فقال لحاجبه: انظر هل في المسجد أحد من حداثنا؟، فخرج، فإذا سعيد بن المسيب في حلقته، فقام حيث ينظر إليه، ثم غمزه، وأشار إليه بإصبعه، ثم ولَّى، فلم يتحرك سعيد، فقال: لا أراه فطنًا، فجاء ودنا منه، ثم غمزه، وقال: ألم ترني أشير إليك؟، قال: وما حاجتك؟، قال: أجب أمير المؤمنين، فقال: إليَّ أرسلك؟، قال: لا، ولكن قال: انظر بعض حداثنا فلم أرَ أحدًا أهيأ منك، قال: اذهب فأعلمه أني لست من حدَّاثه. فخرج الحاجب وهو يقول: ما أرى هذا الشيخ إلا مجنونًا، وذهب، فأخبر عبد الملك، فقال: "ذاك سعيد بن المسيب فدعه".[1]

ففي هذا الموقف الرائع يضرب الإمام بن المسيب مثالًا للعالم الذي يثق بعلمه، ويعلم أنه لا يريد شيئًا من أحد، سواء كان حاكمًا أو غير ذلك، فكما ذكرنا من قبل قد يظن الناس بل أغلب الناس أن هذا شرف عظيم المنال، أن يتقرب للحكام، ولكن هؤلاء هم طلاب الدنيا أما

(1) طبقات ابن سعد ج5 ص 130.

أمثال سعيد بن المسيب فهؤلاء طلاب آخرة، فهم يدركون ما منَّ الله به عليهم من نعمة العلم، وكيف أنه يجب على العالم أن يقدِّر هذا العلم ويصونه، بل وفي هذا الموقف يعطينا درسًا مهمًّا؛ وهو أن العلم يُسعَى إليه.

قصة زواج ابنة سعيد بن المسيب رحمه الله

عن إبراهيم بن عبد الله الكتاني، أن سعيد بن المسيب زوّج ابنته بدرهمين. فعن ابن أبي وداعة، قال: كنت أجالس سعيد بن المسيب ففقدني أيامًا فلما جئته قال: أين كنت؟ قال: توفيت أهلي فاشتغلت بها، فقال: ألا أخبرتنا فشهدناها؟ قال: ثم أردت أن أقوم فقال: هل استحدثت امرأة؟ فقلت: يرحمك الله ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة، فقال: أنا، فقلت: أو تفعل؟ قال: نعم، ثم حمد الله تعالى وصلى على النبي ﷺ وزوَّجني على درهمين أو قال: ثلاثة قال: فقمت ولا أدري ما أصنع من الفرح فصرت إلى منزلي وجعلت أتفكر ممن آخذ

وممن أستدين فصليت المغرب وانصرفت إلى منزلي واسترحت وكنت وحدي صائمًا فقدمت عشائي أفطر كان خبزًا وزيتًا، فإذا بآت يقرع، فقلت: من هذا؟ قال: سعيد، قال: فتفكرت في كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب فإنه لم يُر أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد فقمت فخرجت فإذا سعيد بن المسيب فظننت أنه بدا له، فقلت: يا أبا محمد إلا أرسلت إلي فآتيك، قال: لأنت أحق أن يؤتى، قال: قلت: فما تأمر؟ قال: إنك كنت رجلًا عزبًا فتزوجت فكرهت أن تبيت الليلة وحدك وهذه امرأتك فإذا هي قائمة من خلفه في طوله، ثم أخذها بيدها فدفعها بالباب ورد بالباب فسقطت المرأة من الحياء فاستوثقت من الباب ثم قدمتها إلى القصة التي فيها الزيت والخبز فوضعتها في ظل السراج لكي لا تراه، ثم صعدت إلى السطح فرميت الجيران، فجاءوني فقالوا: ما شأنك؟ قلت: ويحكم زوجني سعيد بن المسيب ابنته اليوم وقد جاء بها على غفلة، فقالوا: سعيد بن المسيب زوّجك؟ قلت: نعم، وها هي في الدار، قال: فنزلوا هم إليها وبلغ أمي فجاءت، وقالت: وجهي من

وجهك حرام إن مسستها قبل أن أُصلحها إلى ثلاثة أيام، قال: فأقمت ثلاثة أيام ثم دخلت بها فإذا هي من أجمل الناس، وإذا هي من أحفظ الناس لكتاب الله وأعلمهم لسنة رسول الله ﷺ وأعرفهم بحق الزوج، قال: فمكثت شهرًا لا يأتيني سعيد ولا آتيه، فلما كان قرب الشهر أتيت سعيدًا وهو في حلقته فسلمت عليه فرد علي السلام ولم يكلمني حتى تقوض أهل المجلس فلما لم يبق غيري، قال: ما حال ذلك الإنسان؟ قلت: خيرًا يا أبا محمد على ما يحب الصديق ويكره العدو، قال: إن رابك شيء فالعصا، فانصرفت إلى منزلي فوجّه إلي بعشرين ألف درهم، قال عبد الله بن سليمان: وكانت بنت سعيد بن المسيب خطبها عبد الملك بن مروان لابنه الوليد بن عبد الملك حين ولاه العهد فأبى سعيد أن يزوّجه فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد حتى ضربه مائة سوط في يوم بارد وصب عليه جرة ماء وألبسه جبة صوف، قال عبد الله: وابن أبي وداعة هذا هو كثير بن عبد المطلب بن أبي وداعة[1].

(1) راجع طبقات ابن سعد، سير أعلام النبلاء، سعيد بن المسيب سيد التابعين للدكتور

صموده أمام والى المدينة

لم يكن سعيد راضيًا عن حكم بني مروان في الشام ولا على خلافة عبد الله بن الزبير في الحجاز لتخلي بني أمية في أواخر العهد عن مبدأ الشورى في الإسلام وإصراره على البيعة ولعدم استكمالها من أولي الحل والعقد والمسلمين لابن الزبير.

فاستعمل ابن الزبير جابر بن الأسود بن عوف الزهري واليًا على المدينة، فدعا الناس لبيعة الزبير ومنهم سعيد الذي قال: "لا، حتى يجتمع الناس"، فضربه سوطًا فبلغ ذلك ابن الزبير فأرسل لجابر يلومه ويقول ما لما ولسعيد دع عنه[1].

وكذلك أنكر سعيد على هذا الوالي الذي تزوّج الخامسة قبل أن تنقضي عدة الرابعة، فلما ضرب سعيد بن المسيب صاح به سعيد والسياط تأخذه: "والله ما ربعت على كتاب الله، يقول الله مثني وثلاث ورباع وإنك تزوّجت الخامسة قبل أن تنقضي عدة الرابعة، وما هي إلا ليال فاصنع ما بدا لك فسوف يأتيك ما تكره"، فما مكث إلا يسيرًا حتى قُتل ابن الزبير.

وهبة الزجيلي.

(1) طبقات ابن سعد| ج5 ص 122.

كاد أن يُضرب عنقه

وفي أيام الفتنة الشديدة والتي حدثت في المدينة أيام وقعة الحرة والتي حدث فيها ما يخالف شرع الله تعالى، وقد جيء فيها بسعيد إلى مسلم بن عقبة كي يبايع، فقال أبايع على سيرة أبي بكر وعمر، فأمر بضرب عنقه فشد له رجل وقال: "إنه مجنون"، فخلى سبيله[1].

فأي ثبات هذا الذي هو فيه هذا الشيخ الكبير! إذ لا يخشى الموت ولا يخشى قول الحق ثقة بالله تعالى.

مع وليد وسليمان ابنيّ عبد الملك

دُعي سعيد بن المسيب للبيعة للوليد وسليمان ابنيّ عبد الملك بن مروان فقال: "لا أبايع لاثنين، ما اختلف الليل والنهار"، فقيل له: ادخل من باب واخرج من باب آخر، (تبريرًا للبيعة لاثنين)، فقال: والله لا يقتدي بي أحد من الناس، فجلد مائة جلدة وألبسوه المسوح[2]، ولكنه

---

(1) المرجع السابق.

(2) وهو من الشعر يلبس تعذيبًا للجسد.

أصر على قول الحق فهو يعلم أن النبي قد نهى عن البيعة لاثنين ولذلك فهو متمسك بدينه ومدافعًا عن سنة نبيه – ﷺ.

وقد أشار البعض على سعيد بأمور ليهرب من الوقوف في موقف البيعة لاثنين، فقال له عبد الرحمن بن عبد القارئ حين قدمت البيعة للوليد وسليمان بالمدينة: إني مشير عليك بخصال ثلاث: أن تعتزل مقامك، فقال: لا أعتزل مقامًا قمته منذ أربعين سنة، قال: تخرج معتمرًا، فقال: ما كنت لأنفق مالي وأجهد بدني في شيء ليس لي فيه نية، قال: وما الثالثة؟ قال: تبايع، فقال: أرأيت إن كان الله أعمى قلبك وبصرك، قال: فما علي وكان أعمى.

ولما دُعي سعيد للبيعة وأبى انتهى به الأمر إلى الجلد ولبس تبان[1] شعر وأوقفه عيانًا للناس كي لا يُقتدى به، وتستمر الوساطة حتى يعود عن رأيه، ولكنه يأبى إلا قول الحق ويرفض البيعة لاثنين، فتعرض عليه مرة أخرى فيرفض فيُجلد ولما يئسوا منه قالوا نعرض عليك خصال ثلاث:

---

(1) سراويل صغيرة مقدار شبر ستر العورة.

الأول: أن يُقرأ عليك كتاب البيعة فلا تقل لا ولا تقل نعم، قال: فيقول الناس بايع سعيد بن المسيب ما أنا بفاعل.

ثانيا: فتجلس في بيتك فلا تخرج إلى الصلاة أيامًا فإنه يقبل منك إذ طُلبت في مجلسك ولم يجدك، قال: وأنا أسمع الأذان فوق أذني حي على الصلاة حي على الفلاح ما أنا بفاعل.

ثالثًا: فانتقل من مجلسك إلى مجلس غيره فإنه يرسل إلى مجلسك فإن لم يجدك أمسك عنك، قال: ما أنا بمتقدم لذلك شبرًا ولا متأخر شبرًا.

فلما خرج لصلاة الظهر أُرسل إليه ليبايع فرفض فسُلت عليه السيوف وضُرب بالسياط وأُلبسَ التبان، بل وسُجن بعد ذلك[1].

فوالله إنه لعجب عجاب هذا الثبات في المحن من أولئك الذين يملكون إيمانا قويًا في زمان قريب، فما بالنا بمن تربى على أيدي صحابة رسول الله ﷺ!

---

(1) المرجع السابق بتصرف.

ويُذكر أن امرأة لما رأت سعيد قالت له: "إن هذا لمقام خزي"، فرد عليها قائلًا: "من مقام الخزي فررنا".

وأود أن أختتم هذه السيرة العطرة التي امتلأت بمواقف الحق والصمود الذي يجب أن تعلم منه فنختم بأقواله - رحمه الله- التي خلدت إلى يومنا هذا لعلّها تجد آذانًا واعية.

فمن أقواله: "لا تملؤوا أعينكم من أعوان الظلمة، إلا بإنكار من قلوبكم، لكيلا تحبط أعمالكم الصالحة".[1]

وقال: "من استغنى بالله افتقر الناس إليه".[2]

وقال: "الدنيا نذلة، وهي إلى كل نذل أميل، وأنذل منها من أخذها من غير وجهها، ووضعها في غير سبيلها".[3]

---

(1) البداية والنهاية ج9 ص 100.

(2) المرجع السابق.

(3) المرجع السابق.

وقال رحمه الله: "ما يئس الشيطان من شيء إلا أتاه من قبل النساء".[1]

وقال: "لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله، يعطي منه حقه، ويكف به وجهه عن الناس".[2]

❋ ❋ ❋

(1) المرجع السابق.

(2) المرجع السابق.

أسد بن الفرات[1]

هو الأمير الكبير، والمجاهد العظيم، والفقيه البارع والمحدث الثقة وأمير المجاهدين أبو عبد الله "أسد بن الفرات بن سنان"، وُلد سنة 142 هجرية بمدينة "حران"[2]، ثم انتقل إلى بلاد المغرب مع أبيه "الفرات بن سنان" سنة 144 هجرية، الذي كان قائدًا للمجاهدين الذين خرجوا لنشر الإسلام في بلاد المغرب، واستقر مع أبيه بالقيروان، ونشأ من صغره على حب العلم وحفظ كتاب الله حتى أتمه في مرحلة الصبا وأصبح هو نفسه معلمًا للقرآن وهو دون الثامنة عشرة.

وشخصية هذا الإمام عجيبة حقًّا لأنه ليس من العجيب أن **يكون المسلم متميزًا في باب معيَّن من أبواب الخير، فهذا شيءٌ عظيم**

(1) من الطرائف التي تُذكر عن هذا الشيخ العظيم المجاهد أنه كان يفتخر باسمه قائلًا: "أنا أسد خير الوحوش، وأبي الفرات خير المياه، وجدي سنان خير السلاح".

(2) فتح صقلية| د. شوقي أبو خليل ص 67.

يستحقُّ أن يثني عليه الناسُ ويذكرونه، ولكن أن يكون المسلم فقيهًا وعالمًا ومحدّثًا، وقاضيًا ومعلّمًا، ومدافعًا عن السُّنَّة وقامعًا للبدعة، ومجاهدًا وأميرًا للجيوش وقائدًا لأساطيل أعالي البحار، ومرابطًا في سبيل الله حتى الموت، فهذا النوع من الرجال الأبطال لا بُدَّ أن نُؤَرِّخ له وبماء الذهب؛ خاصة أن أبناء المسلمين الآن لا يعرفون عنه شيئًا، أو قلَّ من يعرفه.

بداية رحلته العلمية

لقد كانت البداية الحقيقة لهذا العالم الجليل في بيت والده الذي أولاه رعايته، وحرص على تلقينه العلم من منابعه، فكان يعلِّمه ما يعلم ويوجهه صوب العلماء حتى حفظ كتاب الله واستكمل دراسته على يد علي بن زياد العبسي، وكان أسد يقول دائمًا: "إني لأدعو الله لعلي بن زياد مع والدي لأنه أول من تعلمت العلم عليه"[1].

فكان والده يضعه بالمسجد الذي كان المدرسة والكلية والجامعة التي يتلقى فيها الشباب العلم والفلك والرياضيات والقرآن والحديث

(1) فتح صقلية| د. شوقي أبو خليل| ص 67.

وكل العلوم، فكان الشاب يتعلم فيه علم الدنيا والآخرة، ولذلك كان الشباب مسلمًا على أفضل ما يكون، ولذلك حرص أعداء الأمة على تقليل دور المسجد حتى انعدم تمامًا فصارت الأخلاق إلى المنحدر وأصبحت القدوات هي شخصيات لا ترتقى حتى لمستوى الحدوة فضلًا أن تكون قدوة ولا حول ولا قوة إلا بالله.

مع الإمام مالك

تحرك أسد بن الفرات ذلك الشاب آنذاك متجهًا إلى المدينة المنورة وذلك لمقابلة الإمام مالك وسماع الموطأ منه شخصيًا.

وقد كان في ذلك الزمان مدرستان أو جامعتان كبيرتان، الأولى بالمدينة على رأسها الإمام مالك، والثانية بالعراق وأستاذها الإمام الأكبر أبو حنيفة رحمهما الله[1].

ووصل إلى المدينة، وقد كان للإمام مالك - رحمه الله- هيبة في الصدور فلا يجرؤ أحد عليه، وهو قليل الكلام، وكانت طريقة تلامذته الاستماع والإقلال في المناقشات ولا يسألون إلا عما وقع من أحداث،

(1) رجال من التاريخ ص 48.

وهذا ما لم يشف صدر أسد بن الفرات، فبعد أن أتم الموطأ قرر قرارًا آخر وهو ترك المدينة والاتجاه إلى المدرسة الأخرى، أي إلى العراق نحو مدرسة الإمام الأكبر أبي حنيفة.[1]

ومما يُذكر في هذا المقام أن أَسَدَ بنَ الفراتِ يقول: كنتُ أنا وصاحبٌ لي نَلْزَمُ مالكَ بنَ أنسٍ، فلمّا أردنا الخروجَ إلى العراقِ أتيناه مودِّعَينَ له، فقلنا له: أَوْصِنَا، فالتفتَ إلى صاحبي، فقال: أوصيك بالقرآن خيرًا، والتفتَ إليَّ، فقال: أوصيك بهذه الأُمَّة خيرًا. قال أَسَدٌ: فما مات صاحبي حتى أقبل على القرآن والعبادة[2].

في العراق

وصل أسد بن الفرات إلى العراق، ولكنه وجد أن الإمام الأكبر قد توفاه الله وقد وُلي الأمر من بعده أشهر تلامذته وهما أبو يوسف ومحمد

---

(1) المرجع السابق بتصرف.

(2) خرجه الخطيب البغدادي فيما نقله عنه الرشيد العطار في إمجرد أسماء الرواة عن مالك|ص24، وهذا إن دل إنما يدل على بصيرة الإمام مالك رحمه الله، وعلى تفوق أسد وقوته في العلم.

بن الحسن، وقد كان الإمام أبو يوسف قد وُلي القضاء مما شغله قليلًا عن تدريس العلم، فاتجه صوب الإمام محمد الذي تصدر للتدريس بل وانتهت إليه رياسة العلماء حتى كان من تلامذته الإمام الشافعي، فلزمه أسد بن الفرات وكان يحضر دروسه دائمًا، ولكنه لم يجد هذا شافيًا لصدره ولرغبته الجامحة في تلقي العلم إذ أراد أن يحصل علم الإمام محمد كاملًا، فماذا فعل؟

فقد ذهب إليه قائلًا: "إني رجل غريب قليل النفقة، والسماع منك نذر (أي قليل نظرا لاتساع المسجد وكثرة الحضور)، فما الحيلة في أمري؟"، فقال له محمد بن الحسن: "قد جعلت النهار للعراقيين وجعلت الليل لك[1].

وقفة

وهنا لا بد من وقفة في غاية الأهمية، إذ لا نعلم من أي منهما نتعجب، أنعجب من طالب العلم الشاب الذي سن السابعة والعشرين

(1) المرجع السابق ص 49، راجع أيضًا راغب السرجاني، حلقة مرئية بعنوان قرار جريء عن أسد بن الفرات.

من عمره وهو في هذا العنفوان والشغف العلمي الذي نأمل أن يكون فيه شباب اليوم من حيث التحصيل العلمي والرغبة في تلقي العلم والسفر من أجله والسعي الحثيث وبذل الجهد والمال لأجل ذلك، أم نعجب من هذا العالم الورع التقي النقي الذي ما إن رأى تلك البذرة النشطة متوجهة أمامه حتى حافظ عليها وأحاطها برعايته وعنايته حتى عندما يعود أسد بن الفرات إلى القيروان وينشر العلم هناك يكون ذلك في ميزان حسناته؟! فهذه هي البصيرة الثاقبة، فقد أظمأ نهاره وأشعل ليله في نشر العلم فجعل النهار للطلاب عامة والليل لأسد خاصة، فلا يستريح نهائيًا فسبحان الله أي همة هي التي كانوا عليها هؤلاء!

في بيت الإمام محمد

أخذه الإمام محمد بن الحسن ببيته وأعطاه غرفة بجوار غرفته وكان يسهر معه الليل ويضع أمام التلميذ قدح من الماء فإذا نعس نضح وجهه بالماء فيصحو ويعاود من جديد، وما طلب منه أجرًا ولا سأله مالًا بل كان هو الذي يطعمه ويسقيه، ذلك لأن العلم في نظر هؤلاء العظام عبادة وقربة لله، فالطالب يطلب العلم لله لا للشهادة ولا للدنيا،

والأستاذ يعلم الله لا للمرتب ولا للمنصب[1]، فيا ليت كل من وُضع في مكانة التعليم أن يعلم قدر ومكانة ما هو عليه.

وقد لبث مدة في العراق مع محمد بن الحسن الذي أحاطه بالعناية والرعاية لشأنه والتفقد لحاجاته في عيشه ودرسه ما سدد خطاه ومضى به نحو غايته[2].

وهكذا قدر لابن الفرات أن يدرس المذهبين الكبيرين السائدين في العالم الإسلامي إذ ذاك، مذهب أهل الحديث في المدينة ومذهب أهل الرأي في بغداد العراق[3].

كتاب المدونة أو الأسدية

وبعد هذا قرر الانتقال إلى القيروان لينشر ما تعلَّم من علم هناك، وفي طريق عودته بعد أن علم بوفاة الإمام مالك قرر أن يذهب إلى تلامذته ليأخذ عنهم ما بقي من علم الإمام مالك رحمه الله، فذهب إلى

---

(1) رجال من التاريخ| ص 49.

(2) فتح صقلية| د. شوقي أبو خليل| ص 68.

(3) المرجع السابق ص 68.

مصر وقابل فيها أئمة الفقه المالكي كعبد الله بن وهب وعبد الله بن الحكم وعبد الرحمن بن القاسم[1] الذي عقدت بينهم وبينه صلة، وإن كان مع عبد الرحمن بن القاسم بشكل أكبر والذي عرف عنه تبحره في العلم وشدة الورع ونافذة البصيرة فأثار في نفس ابن الفرات ذكر الإمام مالك الذي تُوفي أثناء مقامه بالعراق فرأى في ابن القاسم صورة الإمام مالك حتى قال للناس في المسجد: "معاشر الناس إن كان مالك بن أنس قد مات فهذا مالك بن أنس"، وقد نتج عن هذه العلاقة والصلة الطيبة بين العالمين الجليلين أثرًا من الآثار الخالدة وهو الكتاب الذي عُرف بعد ذلك بالأسدية نسبة إلى أسد بن الفرات[2]، فقد كان يدوِّن كل ما يقوله ابن وهب ولذلك عُرف أيضًا باسم المدونة وهو من العلامات الفارقة في المذهب المالكي حتى يومنا هذا[3].

---

(1) سير أعلام النبلاء الطبقة الحادية عشر.

(2) فتح صقلية| د. شوقي أبو خليل| ص 68، سير أعلام النبلاء الطبقة الحادية عشر.

(3) قال أبو عثمانَ سعيدُ بنُ عمرِو بنِ عمار البَرْذَعِيُّ في «سؤالاتِه لأبي زُرْعَةَ عبيدِ الله بنِ عبدِ الكريمِ الرَّازِيِّ»: وذَكَرَتُ لأبي زُرْعَةَ مسائلَ عبدِ الرحمن بن القاسمِ عن مالكٍ، فقال: عندَهُ ثلاثمائة جِلْدٍ أو نحوُه مسائلَ أسديّةً.

وقفة

والله إن الوقفات في سيرة العلماء لا تُعد ولا تُحصى، والعجب كل العجب نراه في همة هؤلاء إذ لم يكتف الإمام أسد وهو أسد حقًّا في سعيه للعلم، وأصبح فرات في تبحره وما لديه من معرفة، وسنان على كل مبتدع في الدين، إذ لم يكتف بتلقيه الموطأ من الإمام مالك وتلقيه علم الإمام أبي حنيفة، فقرر أن يلتقي بتلامذة الإمام مالك ليأخذ عنهم ما بقي من علم مالك، فأي همة هذه التي يتحرك بها هؤلاء! والله إننا نقف أمام هؤلاء في قمة العجز، ولكن هذه هي القدوات التي لا بد أن نقتضي بها ونسعى بكل جد أن نكون مثلهم وليس مثل القدوات الفاسدة التي تُصدَّر لنا في مجتمعاتنا حاليًا، والتي تفسد ولا تصلح، وتدمر الأخلاق في صورة الإصلاح، تتكلم بكلام معسول وبين طياته خراب وإبعاد عن دين الله.

قلت: وما الأَسَدِيَّةُ؟ فقال: كان رجلٌ من أهلِ المغربِ يُقال لَهُ: أَسَدٌ، رَحلَ إلى محمدِ بنِ الحسنِ، فسأله عن هذهِ المسائلِ، ثم قَدِمَ مصرَ، فإذا عبدُ الله بنُ وَهْبٍ، فَسَأَلَهُ أنْ يسألَهُ عن تلكِ المسائلَ. فما كان عندَهُ فيها عن مالكٍ أجابَهُ، وما لم يكن عنده قَاسَ على قول مالكٍ، فَلَمْ يَفْعلْ، فأتى عبدَ الرحمن بنَ القاسمِ، فتوسَّع لَهُ، فأجابَهُ على هذا، فالنَّاسُ يتكلَّمون في هذهِ المسائلِ.

في القيروان

وبعد ذلك كله استقر المقام بأسد بن الفرات بالقيروان يعلم الناس الذين أقبلوا عليه بشدة، فكان يجلس إليه أتباع مذهب الإمام مالك وأصحاب المذهب العراقي فيأخذ في عرض مذهب أبي حنيفة وشرح أقوال العراقيين فإذا فرغ منها صاح صائح من جانب المجلس: **"أوقد المصباح الثاني يا أبا عبد الله"**، فيأخذ في إيراد مذهب الإمام مالك وشرح أقوال أهل المدينة فكان هذا نهجًا جديدًا في دراسة الفقه المقارن[1] ولذلك يمكن أن نعتبر أسد بن الفرات رائد الفقه المقارن إذ هو من بدأ هذه الفكرة التي تطورت مع الزمن حتى سارت منهجًا يدرَّس في الجامعات الشرعية إلي يومنا هذا.

تولي القضاء

كان الحاكم آنذاك هو زيادة الله الأغلبي من الأغالبة، وكان وزيره هو علي بن حميد الذي ما إن رأى نجابة الإمام وعلمه وقوته في قول الحق

(1) المرجع السابق ص 69.

حتى أوصى به لدى زيادة الأغلبي الذي وافق على توليه منصب القضاء بجانب أبي محرز الكتاني.

وهنا أيضًا لا بد من وقفة: فالتنافس في العمل إنما هو شيء رائع وكذلك عندما يتولى المناصب أرباب علم مثل أسد بن الفرات وأبو محرز الكتاني، فقد يظن ظان أن الدنيا قامت ولم تقعد لذلك إذ كيف يتولى اثنان منصبًا مثل ذلك، ولكن بالفعل كان هناك تنافس وخلافات ومشادات ولكنها كانت خصومة في الرأي لا تتجاوز حدودها، فقد كان يعصمها من ذلك دين يكفي الرجلين، ومروءة ترتفع بهما عن سفاسف الأمور فلا يستحل أحدهما الآخر، وهذا ما نأمل أن نراه في العمل والعلم والمناصب، إذ عندما يحكم قلوبنا دين الله، فتستوي بعد ذلك كل مناصب الدنيا، ويكون العمل بكل جد واجتهاد لصالح دين الله تعالى، وليس للمصالح الشخصية التي تفسد كل شيء في حياتنا ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قرار جريء

وفي عام 212هـ\ 827م وجد ابن الفرات في نفسه رغبة تسيطر عليه يتقرب بها إلى الله لإعزاز دينه وجهاد الأعداء فقرر قرارًا عجيبا غريبًا، وهو أن يخرجَ مجاهدًا في سبيل الله.[1]

وقفة

ولا نعلم متى سنتوقف من التعجب من سيرة هؤلاء الكرام، فعالم مثل أسد بن الفرات له مكانة علمية مرموقة بل ومنصب سيادي في الدولة إذ يُعد كبير القضاة الذي يحكم بين الناس ومقرب إلى الحكام، فما الذي يدفعه إلي اتخاذ قرار مثل هذا وهو الجهاد في سبيل الله تعالى، والتوجه لفتح مدينة صقلية، والتي كانت على عهد مع المسلمين ولكنها نبذته وخالفته، فكان القرار بالتوجه إليها وفتحها، وفور سماعه هذا الخبر قرر أن يتوجه مع الجيش ليكون مشجعًا ومحفزًا لهم ومحيطًا لهم بدين الله وسنة نبيه، فهو عالم كبير ويعلم أن الجيوش المسلمة لا تنتصر

(1) سير أعلام النبلاء الطبقة الحادية عشر.

بالعدة والعتاد وفقط، ولكن بالتقرب إلى الله تعالى ومدى التزامنا بشرعه سبحانه، ولذلك عندما يكون العلماء أمثاله وأمثال آق شمس الدين في فتح القسطنطينية وغيرهما فهنا تنتصر الجيوش لا محالة، إذا أُخذ بأسباب الدين والدنيا ولذلك يكون النصر لا محالة من نصيبهم.

بل وفي ذلك لمحة أخرى في غاية الأهمية وهي أن التعامل مع الدين يكون كقضية شاملة كبرى وليس من نظرة مصغرة، فالدين يشمل كل شيء في حياتنا ولا يقتصر على ما فوق السماء وما تحت الأرض فقط، بل يشمل كل كبيرة وصغيرة، فالله يقول: **"قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ"**، أي أن كل شيء في هذه الدنيا لا بد أن يُؤخذ بإطار دين الله تعالى وليس جزءًا منه فقط كما يذكر رب العزة عن هؤلاء: **"أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ"**[1].

(1) سورة البقرة، الآية 85.

الإصرار على قراره

لما توجه أسد بن الفرات -وهو ابن السبعين من عمره- إلى الأمير الأغلبي يطلب منه السماح له بالخروج مجاهدًا في سبيل الله مع الجيش، ولكنه رفض طلبه، فما كان من أسد إلا أن ألح عليه واستمر في ذلك حتى تحققت رغبته في نهاية الأمر، وكان يقول وقد اقترب أو تجاوز السبعين من عمره: "وجدوني رخيصًا فلم يقبلوني، وقد أصابوا من يجري لهم مراكبهم من النوتية فما أحوجها إلى من يجريها لهم بكتاب الله والسنة".

فتح جزيرة صقلية

تعتبر جزيرة صقلية أكبر جزر البحر المتوسط مساحة وأغناها من حيث الموارد الاقتصادية وأفضلها موقعًا، ولقد انتبه المسلمون لأهمية هذه الجزيرة مبكرًا منذ عهد الصحابة، حيث حاولوا فتحها في عهد عبد الله بن سعد رضي الله عنه، ثم معاوية بن حديج، ثم عقبة بن نافع، ثم عطاء بن رافع، وكان آخرهم عبد الرحمن بن حبيب وذلك سنة

135 هجرية، ثم وقعت الفتن الداخلية ببلاد المغرب بين العرب والبربر وانشغل المسلمون عن جهاد العدو الذي انتهز الفرصة وأغار على سواحل المغرب عند منطقة إفريقية مما جعل المسلمين يتوحدون ويتهيئون للرد على هذا العدوان البيزنطي، وفي هذه الفترة وقعت العديد من الاضطرابات بجزيرة صقلية والتي كانت تتبع الدولة البيزنطية حيث وقع نزاع على حكم الجزيرة بين رجلين أحدهما اسمه "يوفيميوس" وتسميه المراجع العربية "فيمي"، والآخر اسمه "بلاتريوس" وتسميه المراجع العربية "بلاطه" وانتصر "بلاطه" على "فيمي" الذي فر هاربًا إلى إفريقيا واستغاث بزيادة الله بن الأغلب حاكم إفريقيا وطلب منه العون في استعادة حكمه على الجزيرة، فرأى زيادة الله فيها فرصة سانحة لفتح الجزيرة.[1]

استنفر "زيادة الله" الناس للجهاد وفتح صقلية، فهرعوا لتلبية النداء وجُمعت السفن من مختلف السواحل، وبحث ابن الأغلب عن من يجعله أميرًا لتلك الحملة البحرية الكبيرة، فلم يجد خيرًا ولا أفضل من

(1) موقع الألوكة | مقال بعنوان أسد بن الفرات.

الأسد الهصور والبطل المقدام "أسد بن الفرات" على الرغم من كبر سنه في هذه الفترة "ربيع الأول 212 هجرية" أي سبعين عامًا، وكان هذا الاختيار دليلًا على فورة المشاعر الإسلامية في هذه الفترة والأثر الكبير لعلماء الدين الربانيين على الشعب المسلم، وكان أسد بن الفرات يبدي رغبته في هذه الغزوة كواحد من المسلمين لأنه كان محبًا للجهاد عالمًا بمعاني ومقتضيات آيات النفرة في سبيل الله ودور العلماء في ذلك، وأيضًا كان يكره الشهرة والرياء، ولكن ابن الأغلب أصر على أن يتولى قيادة الحملة العسكرية وأيضًا يكون قاضيًا للحملة أي جمع له القيادة الميدانية والروحية لعلمه بمكانة أسد بن الفرات وأثره في الناس وحبهم له[1].ويعد أول من جمع بين المنصبين.

وداع مهيب

جهَّز الأسطول على أفضل ما يكون وأثناء خروجه من ميناء سوسة خرجت الجموع الإسلامية لوداع الأسطول وتوديع ذلك العالم الجليل

(1) المرجع السابق.

الذي لا نظير له أسد بن الفرات، وكان يوم لم ير المغرب مثله، وتكلم الحاكم والخطباء وقام فيه الأمير أسد ليتكلم فقال كلامًا والله يُسطر بماء الذهب، ولا بد أن يضعه كل شاب مسلم في عقله وقلبه معًا، فقد قال: **"والله يا معشر الناس ما ولى لي أب ولا جد ولاية قط، وما أرى أحدًا من أسلافي مثل هذا قط، وما بلغته إلا بعلم، فعليكم بالعلم أتعبوا فيه أذهانكم، وكدوا به أجسادكم تبلغوا به الدنيا والآخرة"**[1]، فهو يعلم جيدًا أن العيون تنظر إلى هذا الرجل الذي لم يكن أهله من أرباب المناصب العليا في الدولة، وكيف ارتقى ليصير الأميرال العام للجيش والأسطول المهيب المتوجه للفتح، فوجه عقولهم وقلوبهم إلى مسألة في غاية الخطورة، ولا بد للجميع أن ينتبه لها وهي مكانة العلم والعلماء وفضل العلم على أهله، فنصح الجميع بأن يتعبوا ويكدوا في طلب العلم فهو بوابة الدنيا والآخرة.

(1) رجال من التاريخ| علي الطنطاوي | ص 52.

أثناء الفتح ونهاية العظماء

طالت المعركة عما كان متوقع لها وخصوصًا من قِبل الجند الذين بدأ بعض منهم أن يمل من ذلك، بل توجهت عناصر منهم بإعلان الشغب والعصيان، وأحكموا أمرهم، وأرادوا أن يظهروا على القاضي والأميرال أسد بن الفرات، فأقبل زعيم المتمردين "أسد بن قادم" يعلن رغبة الجند في العودة إلى ديارهم، وهي رغبة ظاهرها الطاعة وباطنها الثورة، فقابلها أسد بن الفرات بالحكمة أولًا وراح يبين لهم قرب النصر، وعظم الأجر، فما ازدادوا إلا عصيانًا، بل وتجرأ أسد بن قادم على قائد الجيش والأميرال أسد بن الفرات قائلًا: "على أقل من هذا قُتل عثمان بن عفان"، أي أنه تهديد صريح بالقتل فماذا فعل الفقيه القاضي؟ أيستخزى ويخضع للتهديد بالقتل ويضيع المعركة ويخسر النصر المرتقب من أجل ثورة عاصفة يقوم بها مشاغبون الجند أم يشتد ويحزم؟ فلقد صنع ما لا يصنع مثله أبطال الأفلام والروايات، فقد تناول السوط من يد أحد الحرس وانتصب أمام هذا الثائر عليه وضربه على وجهه، ثم

شحذ كل قوته وإيمانه بالله تعالى وصرخ في الجنود إلى الأمام، وتقدمهم يقاتل بكل ما أوتي من قوة وهو الشيخ الكبير في السن فتشحذ الهمم، وترتفع القوة إلى أعلى وأقصى الدرجات، حتى أتمَّ الله الفتح، وفُتحت المدينة الحصينة وكانت البداية لدولة إسلامية في صقلية امتدت لقرون، ولكن الثمن لذلك كان غاليًا فقد اُستشهد البطل الفقيه والعالم الجليل أسد بن الفرات رحمه الله[1]، فأي فضل هذا الذي عاش فيه هذا المجاهد العالم! والله أكون في حيرة من أمري عندما أكتب اسمه، أأضع بجواره عالمًا أم فقيهًا أم محدثًا أم بطلًا مجاهدًا أم كل هذا؟! فرحم الله أسد الذي عاش أسدًا في العلم وأسدًا في القتال، رحل وترك علمًا يكون له زخرًا يوم القيامة، رحل وترك فتحًا كان سببًا فيه ودخل بعده كثيرون من أهل صقلية الإسلام، فكل هذا وغيره في ميزان هذا العالم الجليل الذي اجتهد وجد وتعب وسهر وسافر وبذل الغالي والنفيس في طلب العلم حتى وصل إلى مبتغاه وصار من كبار العلماء، ولما وصل لغاية هذا أراد أن

(1) المرجع السابق بتصرف ص 53.

يترقى ويصل لمراتب الشهداء وهو الشيخ الكبير في السن، فجاهد في الله حق جهاده حتى أُستشهد، فنسأل الله أن يلحقنا مع هؤلاء على خير في زمرة النبيين والصحابة والشهداء بإذن الله فهو ولي ذلك والقادر عليه.

❋ ❋ ❋

عبد الله بن ياسين

هو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير بن علي الجزولي، أحد تلامذة الشيخ وجاج تلميذ الشيخ أبي عمران الفاسي، وهو داعية ومجاهد مالكي، بل ومن زعماء الإصلاح الإسلامي، ومجدد الإسلام بإفريقيا، وواضع الأسس الأولى لدولة المرابطين في المغرب الأقصى.

وهو ممن كانوا على درجة عالية من العلم، ولكنه بجانب علمه بشئون الدين، كان يتمتع بصفات أهلته لتحقيق النجاح في دعوته من بعد نظر ونفاد بصيرة[1]، وجلد وتحمل والقدرة على استيعاب الأمور، والتكيف وفقًا لتغيرات الأوضاع، والإصرار على الحق، وغير ذلك من الصفات العقلية البارعة التي لا بد أن يتحلى بها الداعية دائمًا وأبدًا حيث يكون فاهمًا واعيًا بمن يدعوهم وكيف يتكلم معهم، فلا يتحدث مع الفقراء عن النعيم والبذخ فلن يقبلوه، ولا يتحدث مع الأغنياء عن ترك

(1) حسن أحمد محمود| قيام دولة المرابطين| ص 142.

نعيم الدنيا والزهد فيها، فلن يقبلوه، ولكن لكل مقام مقال، ومع كل مُحَدَثٍ حديث، ولا بد للداعية أن يتحلى بالصبر أيضا والتكيف مع الأوضاع وتطورها ولا ييأس مما سوف يلاقيه.

سنة التبديل والتغير

لقد ارتبط اسم الشيخ عبد الله بن ياسين بتلك الدولة العظيمة والتي دافعت عن بيضة الإسلام لفترات طويلة والتي سُميت بدولة المرابطين[1]، وبحق فهو النواة الأولى لتأسيس هذه الدولة التي كانت في المغرب الأقصى وانبثقت في الصحراء جنوبًا، وتغير معها وجه التاريخ ووجه الأندلس لفترة من الزمن، أحيت فيها آمالًا وبثت روح الجهاد من جديد، وأحيت الحياة في شتى صورها اجتماعية واقتصادية وعسكرية وسياسية... إلخ، بل ونشرت الإسلام في إفريقيا وإن كانت البداية مع الشيخ من قبيلة صنهاجة في أعماق موريتانيا.

---

(1) وسميت أيضًا بالملثمين لاتخاذهم اللثام، واللمتونيين لأن أصلهم من لمتونه إحدى قبائل صنهاجة.

وحتى نفهم الأمر جيدًا ونعرف قيمة هذا الشيخ العظيم لا بد أن نعرف قليلًا عن الأوضاع في صنهاجة كيف، كانت وكيف أصبحت.

ففي أعماق موريتانيا حيث الفقر الشديد والحر والجدب وأناس لا يتقنون الزراعة ويعيشون على بداوة شديدة، كانت هذه القبيلة الشديدة التي تُدعى قبيلة صنهاجة، وكانت في البداية مجوسية إلى أن دخلها الإسلام في القرن الثالث الهجري، ولكن مع ابتعادهم عن العمران وعيشهم في أعماق الصحراء في أقصى المغرب فقد استمروا في بداوتهم وحياتهم بجهل شديد، وكأن الإسلام لم يدخل دارهم، إذ حدث التبديل والتغيير وشاعت فيهم الفواحش بشكل كبير، كانتشار الزنا والخمر والزواج على الجاهلية دون قيد أو شرط، بل مما يُذكر في هذا الصدد ويوضح بجلاء كيف كانت حياتهم بعيدة كل البعد عن دين الله تعالى لجهلهم به، وذلك لدرجة أن الرجل كان يخرج مع أخته لرعي السوام فتعود أخته حاملًا منه، وكان لا ينكر عليهم أحد هذه الفعلة، بل انتشر الزنا من المرأة المتزوجة وبعلم زوجها وحضوره[1].

(1) راجع الذهبي| تاريخ الإسلام | 31 ص 82، راجع علي الصلابي| دولة المرابطين ص 124ـ بتصرف.

فإلى هذه الدرجة كان الجهل الشديد، والذي لا أبرئ الأمة الإسلامية منه فكيف لنا بترك إخواننا المسلمين دون علم وعلماء بينهم حتى تنتشر فيهم الفواحش ما ظهر منها وما بطن وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعًا، ولا تعجب أيها القارئ الكريم وتقول إن هذا كان في قديم الزمان، بل إننا اليوم وفي بلادنا تجد قرى في الأطراف وهي في قمة الجهل بل أغلبهم لا يُحسنون قراءة الفاتحة ناهيك عن الصلاة والصوم وفعل الفواحش والمنكرات بجهل منهم وظنًا منهم أنهم على عقيدة صحيحة، فهذه رسالة لكل من يستطيع أن يفيد في المجتمع الإسلامي ويتراخى عن نشر العلم والعقيدة الصحيحة بدلًا من تولي الإعلام هذا الدور بفساد وإفساد.

وقد تولى أمر هذه القبائل ملك التف حوله أهل صنهاجة ولكنه مات، فتولى حفيده، ثم ابن حفيده الذي اختلف عليه حتى قُتل، وحدث الشقاق بعد ذلك وصاروا طوائف، ثم اجتمعوا مرة أخرى حول ملك

آخر، ولكنه لم يعمِّر طويلًا فمات، وتولى من بعده يحيى بن إبراهيم الجدالي، من قبيلة جدالة وهي إحدى القبائل الكبرى في صنهاجة[1].

بداية الأمور وتحرك يحيى بن إبراهيم

أراد يحيى بن إبراهيم وهو رئيس جدالة[2] أن يحج إلى بيت الله، وكان الحج في هذا الزمان يعني رحلة لطلب العلم أيضًا، فاستخلف ابنه وتوجه للحج، وفي طريق عودته إلى القيروان شاهد فيها مجالس العلم واستمع إلى درس الشيخ أبي عمران الفاسي -وهو من العلماء في زمانه- وقارن بين حياة العلم والمعرفة التي يحياها سكان القيروان وبين الجهل المدقع والفواحش التي تعيش فيها عشيرته، ومن ثم أحس بالحاجة الماسة لفقيه وعالم يعلِّم أهله الدين حق العلم، لذلك طلب من أبي

(1) راجع راغب السرجاني| الأندلس من الفتح إلى السقوط ج2 ص 466.

(2) إحدى بطون صنهاجة والتي تعد من أهم قبائل الشمال الإفريقي والتي كان الفضل بعد ذلك في نشر الإسلام هناك.

عمران الفاسي أن يبعث معه من يقوم بهذه المهمة، وقد استجاب الشيخ الفاسي – رحمه الله– لهذا الطلب وأرسله إلى الفقيه واجاج بن زلوا – وهو ممن تعلّم على يد أبي عمران الفاسي– بمدينة نفيس التي وصل إليها يحيى بن إبراهيم لتحقيق هدفه المنشود في البحث عن الرجل المناسب، وبالفعل يدله الشيخ واجاج على الفقيه والشيخ عبد الله بن ياسين[1]، ومن هنا تحدث البداية المهمة والقرار الجريء الذي سوف يُتخذ بعد ذلك، والذي سوف يغير وجه العالم الإسلامي في المغرب بصفة عامة والأندلس بصفة خاصة.

وهنا لا بد من وقفة مهمة مع هذا الرجل الزعيم يحيى بن إبراهيم الجدالي الذي ما إن علم الحق لم يتوان للحظة واحدة، بل اتخذ الخطوات السريعة للتغيير والتبديل لنشر دين الله على أكمل ما يكون، فطلب من الشيخ العالم أبي عمران الفاسي فقيهًا يعلِّم في وطنه الدين، وقد تحرك الشيخ الفاسي بجد واجتهاد وذكاء وبصيرة فاختار الشيخ واجاج الذي

(1) راجع بتصرف الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس| د. حسين علي حسن| ص 18/ 19ـ راجع التاريخ الأندلسي| عبد الرحمن الحاجي| ص419.

كان أيضًا على بصيرة ليرسله إلى شخص ذي مواصفات خاصة ليكون على قدر هذه المهمة الكبيرة التي لا يستطيع أي شخص حملها، إذ تحمل في طياتها مصاعب لا تعد ولا تحصى كما سنرى، بل مخاطر قد تصل إلى حد الموت.

فهكذا لا بد أن يكون الزعيم والقائد والمدير في عمله والرئيس في مؤسسته، لا بد أن يكون حريصًا على من معه فإذا تعلَّم علمًا جديدًا ينشره ولا يبخل به، وإذا أُتيحت الفرصة لتصحيح المعتقدات فليتحرك دون روية بل بسعي حثيث، وهكذا العلماء لا بد أن يكون لهم مواقف ولا يتسموا بالسلبية والرعونة.

قرار الشيخ العظيم

قد عرض الأمر على عدد من تلامذة الشيخ "واجاج" ولكنهم رفضوا حتى وصل الأمر إلى الشيخ عبد الله بن ياسين، الذي كان له مكانة مرموقة ومجلس علم ويحضره طلاب كثر، ويعيش في القيروان تلك المدينة العظيمة آنذاك، ومركز علمي يشع نورًا في شتى بقاع

الأرض، فعرض عليه الأمر الذي يعني ترك هذه العيشة وتلك الحياة التي تتسم بالنعيم، ويذهب إلى أعماق الصحراء حيث الجهل والفقر الشديد ومواجهة ما لا يتوقع.

ونريد أن نتخيل هذا الموقف وكل منا يضع نفسه مكان الشيخ، أن يقال لك الآن اترك ما تعيش فيه من رخاء وحياة منعمة واترك الوسائد المريحة وسوف تذهب الآن إلى أدغال إفريقية حيث الحر الشديد وحياة بلا رفاهية ولا وسائل تواصل ولا خبز وطعام شهي، ولا نوم مريح، بل لا ترى علمًا وأنت الموكل بنشر العلم هناك، وقلب حياتك رأسًا على عقب كما لو أنك دخلت جحيمًا باختيارك، فكيف سيكون موقف كل منا؟

أظن أن الإجابة ستكون بالرفض، ولكن الشيخ عبد الله بن ياسين اتخذ القرار العظيم ووافق على قبول هذه المهمة الصعبة الشاقة، وتوجه إلى صنهاجة برفقة يحيى بن إبراهيم الجدالي.

وقد حز في نفسي كثيرًا كلما رأيت حركات التبشير وسعيها الحثيث في نشر المسيحية بإفريقيا، والتحرك لتوفير وسائل مساعدة هناك قدر

الإمكان وتواجد أفراد منهم بصفة دائمة سواء لإخراج المسلمين من عقيدتهم أو لإدخال أناس جدد في المسيحية أو لتشكيك الكثير في دينه، فما يُقدم من وسائل وأموال وطعام ودواء وكساء يغري الأعين، في حين أن المسلمين في شتى بقاع الأرض يغفلون عنهم، فكيف سيكون تفكيرهم هناك، فبالتأكيد سيحدث التشكك والتشرذم، وهذا هو هدف التبشير، ولا ألومه فهم يقومون بمهمتهم وفقًا لعقيدتهم، لكن من ألومه هو أنفسنا أين نحن من إخواننا المسلمين في شتى بقاع الأرض؟

في جدالة

وفي جدالة وعند وصول الشيخ الذي أُستقبل بترحاب كبير[1]، والذي قد فزع من هول ما شاهد ورأى من الجهل الشديد الذي يرتقي لدرجة أن هؤلاء لا يعرف معظمهم من الإسلام سوى الشهادتين، دون معرفة ما يحتمل ذلك من أحكام[2]، ولم تستمر هذه الفترة طويلًا - أي

(1) الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس| د. حسين علي حسن| ص 20.

(2) راجع بتصرف راغب السرجاني|الأندلس من الفتح للسقوط| ج2 ص 470، راجع القاضي عياض| ترتيب المدارك| ج2 ص 64.

فترة الترحاب-[1]، إذ فور البدء بنشر تعاليم الإسلام كما ينبغي وحدوث التصادم مع أرباب المصالح، ومحاولة تغيير العادات التي ألفوها من الانهماك في الملذات، وما درجوا حتى بدأ الإعراض والجفاء[2]، وذلك في صفوف الزعماء والنبلاء خصوصًا الذين رأوه ينتقص من حقوقهم ويضع حدًا لجبروتهم وعدوانهم وينشر المساواة بين الموالي والسادة[3]، ومن الواضح أنهم حذروا يحيى بن إبراهيم من خطورة الشيخ، ولكن الشيخ عبد الله بن ياسين استمر في دعوته الإصلاحية، ولم يكل أو يمل، فوصل بهم الأمر أن نهبوا بيته بل وهدموه أيضًا، وهُدِدَ بالقتل بل كادوا أن يفعلوا ذلك[4]، فما كان من الشيخ وخصوصًا أمام ضعف يحيى بن

(1) الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس|د. حسين علي حسن| ص 20.

(2) الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس|د. حسين علي حسن| ص 20.

(3) ابن عذارى| البيان المغرب| ج4 ص 8.

(4) الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس|د. حسين علي حسن| ص 20، راجع راغب السرجاني | الأندلس من الفتح للسقوط ص 470.

إبراهيم أمام قوة النبلاء وأرباب المصالح في القبيلة إلا أن اضطر للخروج والارتحال إلى مكان يستطيع حماية نفسه[1].

طرد الشيخ وقرار خطير

بعد أن طُرد الشيخ من القبيلة كان من المفترض أن يتجه عائدًا إلى القيروان حيث مجلسه وسلطته وهيبته وطلابه وتلامذته، ناهيك عن الأجواء المختلفة عما لاقاه وعايشه، وخصوصًا أنه بذل كل ما في وسعه من جهد.

ولكن ما فعله الشيخ كان شيئًا في غاية الورع إذ قرر الاستمرار في دعوته هديًا بسيرة الأنبياء، فجلس يفكر ويفكر حتى هداه الله تعالى إلى التوغل في أعماق الصحراء[2]، يُرجح أنه استقر في منحنى نهر النيجر على

(1) الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس| د. حسين علي حسن| ص 20.

(2) مما يذكر عن ورعه رحمه الله، ما ذكره ابن أبي زرع أن عبد الله بن ياسين: "كان شديد الورع في المطعم والمشرب، فكان طول إقامته فيهم (أي المرابطين) لا يأكل شيئا من لحمانهم

مقربة من مدينة تنبكتو[1] وقد صحبه ممن رقت قلوبهم لدين الله سبعة، يذكر أن منهم الشيخ يحيى بن إبراهيم، وكذلك أبا بكر بن عمر اللمتوني[2]، والذين سيكونان لهما دور كبير بعد ذلك في تأسيس هذه الدولة.

بداية الدعوة

بدأ الشيخ في خيمته على ضفاف نهر النيجر يُعلِّم من جاء معه، وكذلك ممن رق قلبه من الشباب الذين ما إن عرفوا أن الشيخ لم يعاود أدراجه للمغرب بل بقي لنشر الدين الصحيح حتى هرع إليه البعض تلو الآخر، فبدأ الشيخ في تعليمهم دين الله على أكمل ما يكون التعليم، فزادت الخيم حتى صارت خمسين ثم مائة، فمائة وخمسين فالمائتين، حتى

ولا يشرب من ألبانهم، فإن أموالهم كانت غير طيبة لشدة جهلهم، فكان يتصيد ويتعيش من لحوم الصيد".

(1) ويذكر آخرون أنه كان في السنغال.

(2) راغب السرجاني|الأندلس من الفتح للسقوط| ص 471.

أصبح يصعب على الشيخ توصيل علمه للجميع دفعة واحدة، فقسمهم إلى مجموعات صغيرة وجعل على كل منها واحدًا من النابغين، وهذا هو منهج رسول الله ﷺ حين كان يجلس مع صحابته في مكة يعلِّمهم الإسلام وفي بيعة العقبة الثانية حين قسَّم الاثنين والسبعين إلى اثنى عشر قسمًا، وجعل كل قسم خمسة أنفار، منهم نقيبًا، ثم أرسلهم مرة أخرى إلى المدينة حتى قامت للإسلام دولة[1].

واستمر الشيخ في تعليم من معه والأعداد تتزايد حتى وصلت عام 440 هـ 1048 م أي بعد أربعة أعوام من الدعوة وتعليمهم على ضفاف النهر في هذه الخيم المباركة إلى ألف نفس[2]، فأي نصر هذا! فو الله إن هذا "نصر من الله وفتح قريب"[3]، فقد جاء من القيروان وحيدًا والآن صار ألف رجل على عقيدة صحيحة، ولا يبتغون سوى دين الله تعالى، جاء وكان الجهل يعم الأرجاء حتى لم تكد تتنفس أي بارقة أمل

(1) المرجع السابق 472.

(2) التاريخ الأندلسي|عبد الرحمن الحاجي| ص 420.

(3) المرجع السابق بتصرف ص 472.

لإقامة شرع الله، فأصبح الآن ألف رجل يمثلون دين الله تعالى في هذه البقعة الكبيرة بفضل الله تعالى.

ويروي ابن أبي زرع فيصف هذه المرحلة من حياة المرابطين بقوله: "فدخلاها (الجزيرة) ودخل معهما سبعة أنفار من جدالة، فابتنيا بها رابطة (خيمة)، وأقام بها مع أصحابه يعبدون الله تعالى مدة ثلاثة أشهر، فتسامع الناس بأخبارهم، وأنهم يطلبون الجنة والنجاة من النار، فكثر الوارد عليهم والتوابون، فأخذ عبد الله بن ياسين يُقرئهم القرآن ويستميلهم إلى الآخرة، ويُرَغِّبهم في ثواب الله تعالى، ويُحَذِّرهم أليم عذابه، حتى تمكَّن حُبُّه منهم في قلوبهم، فلم تمر عليهم أيام حتى اجتمع له من تلاميذه نحو ألف رجل من أشراف (صنهاجة)، فسماهم (المرابطين) للزومهم رابطته، وأخذ هو يُعَلِّمهم الكتاب والسنة والوضوء والصلاة والزكاة، وما فرض الله عليهم من ذلك، فلما تفقهوا في ذلك وكثروا قام فيهم خطيبًا، فوعظهم وشَوَّقهم إلى الجنة، وخَوَّفهم من النار وأمرهم بتقوى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأخبرهم بما في ذلك من ثواب الله تعالى وعظيم الأجر، ثم دعاهم إلى

جهاد مَنْ خالفهم من قبائل (صنهاجة)، وقال لهم: "يا معشر المرابطين؛ إنكم جمع كثير، وأنتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم، وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى صراطه المستقيم، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم، وتأمروا بالمعروف، وتنهوا عن المنكر، وتجاهدوا في سبيل الله حقَّ جهاده".

فقالوا: "أيها الشيخ المبارك؛ مُرْنَا بما شئت تجدنا سامعين مطيعين، ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا".

فقال لهم: "اخرجوا على بركة الله، وأنذروا قومكم، وخَوِّفُوهم عقاب الله، وأبلغوهم حجته، فإن تابوا ورجعوا إلى الحقِّ وأقلعوا عمَّا هم عليه فخلوا سبيلهم، وإن أَبَوْا من ذلك وتمادوا في غيهم ولجُّوا في طغيانهم، استعنَّا بالله تعالى عليهم، وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا، وهو خير الحاكمين". فسار كل رجل منهم إلى قومه وعشيرته، فوعظهم وأنذرهم ودعاهم إلى الإقلاع عمَّا هم بسبيله، فلم يكن منهم من يقبل ولا يرجع، فخرج إليهم (عبد الله بن ياسين)، فجمع أشياخ القبائل ورؤساءهم وقرأ عليهم حجة الله، ودعاهم إلى التوبة، وخَوَّفهم عقاب

الله، فأقام يُحَذِّرهم سبعة أيام وهم في كل ذلك لا يلتفتون إلى قوله، ولا يزدادون إلا فسادًا، فلمَّا يئس منهم قال لأصحابه: "قد أبلغنا الحجة وأنذرنا، وقد وجب علينا الآن جهادهم، فاغزوهم على بركة الله تعالى"[1]، ومن هنا بدأ التأسيس للدولة التي ستكون بعد ذلك.

تأسيس على عقيدة صحيحة

بدأ عبد الله بن ياسين يفقِّه الناس في دينهم ويعلِّمهم شريعة ربهم[2]، ويعلِّمهم القرآن ويستميلهم إلى الآخرة، ويُرَغِّبهم في ثواب الله تعالى، ويُحَذِّرهم أليم عذابه[3] وغير ذلك من تعاليم دين الله تعالى، إذ بدأ بما لا يمكن أن يجهله المسلم من فهم حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ثم تلا ذلك بما بُني عليه الإسلام وهم الخمس، ثم رفعهم واحدة تلو الأخرى حتى قامت على أكتافهم دولة عظيمة بعد

(1) ابن أبي زرع|روض القرطاس| ص 125 وما بعدها.

(2) التاريخ الأندلسي|عبد الرحمن الحاجي| ص 420.

(3) ابن أبي زرع| روض القرطاس| ص 125 وما بعدها.

ذلك، ولكن أهم ما يلاحظ في تربية ابن ياسين للمرابطين هو تأسيسهم على عقيدة صحيحة أولًا، ثم تلا ذلك بغيرها من أحكام الإسلام، حتى ارتقى بهم إلى مستوى المجاهدين في سبيل الله تعالى.

وهنا لا بد من وقفة مع العقيدة وأهميتها:

فالعقيدة الإسلامية أمر في غاية الأهمية والخطورة في آن وحد، فالإسلام عقيدة وعملٌ، ولا يَصِح عملٌ بلا اعتقادٍ، ولا ينفع عمل بلا عقيدة صحيحة، بل إن العقيدة ذات أهمية سواء على مستوى الفرد أو المجتمع، إذ لو كان الفرد على عقيدة صحيحة وكذلك المجتمع لما ظهرت فينا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا لجأ كل ذي هم إلى تجارب الغرب ومناهجه التي لا تصلح لنا ولا لمجتمعاتنا، وخطورة العقيدة أنها إن صلحت لن تستطيع أي دولة في العالم الولوج داخلنا وبث السموم والشقاق والفرقة، ولذلك تعمُد دائمًا دول الغرب لتدمير عقيدة الإسلام وإظهاره على كونه يمثل الإرهاب والتطرف وذلك عن طريق الأذرع الإعلامية سواء على المستوى المحلي أو العالمي؛ ولذلك

سنجد أن النبي ﷺ استمر في الدعوة مدة 23 عامًا قضى منها 13 سنة بمكة و10 سنوات في المدينة، والملاحظ للقرآن المكي وكذلك غالبية أحاديث النبي في الفترة المكية، سنجد أنها كلها تركِّز على العقيدة الصحيحة، وذلك لبناء مجتمع صحيح في معتقداته يسهِّل بعد ذلك بناء دولة قوية، وقد كان بالفعل، فبعد تأسيس ذلك الجيل العظيم من صحابة رسول الله على عقيدة صحيحة، استطاع أن يكون الفرد منهم بمثابة ألف رجل بل يكون الرجل منهم بجيش بأكمله.

بل لما أرسل النبي ﷺ معاذ إلى أهل اليمن، قال له: "فليَكن أوَّل ما تدعوهم إليه أن يُوَّحدوا الله تعالى، فإذا عرَفوا ذلك، فأخْبِرهم أن الله فرَض عليهم خمس صلوات"[1]، فهذا هو المقصد أن يُؤسس الناس على العقيدة أولًا.

ومن خطورة العقيدة عندما تكون فاسدة وخصوصًا عندما تكون لدى الحاكم مثل الواثق بالله، أو المعتصم، أو المأمون، في فتنة خلق القرآن، فهؤلاء كانوا حكامًا ولكن على عقيدة غير صحيحة مما ترتب

(1) رواه البخاري.

عليه قتل علماء مسلمين وحبس أعداد غفيرة وتعذيب إمام الفتنة الإمام أحمد بن حنبل، وغيره والتضييق على الناس وأمور كثيرة كما وضحناها إبان الحديث عن الإمام أحمد، والمصيبة الكبرى أنهم يفعلون ذلك ظنًا منهم أنه ابتغاء مرضات الله، وهذا يوضِّح بجلاء خطورة أن تكون على عقيدة غير صحيحة.

ولذلك نهيب بكل مسلم أن يصحح عقيدته بتعلم العلم الشرعي، أو على الأقل ما لا يسع المسلم جهله، ليعرف حق لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله عليه حق المعرفة؛ ليجنِّب نفسه من الشرك الأكبر والأصغر أيضًا، حتى نقابل الله عز وجل مستبشرين فرحين بإذن الله.

عظيم في حياته وفي وفاته

قد كان من الممكن للشيخ الجليل بعد أن أسس هذه الدولة الصغيرة والتي بها جيش وعدة وعتاد ورجال وأمور كثيرة مما يطمح فيها الكثيرون أن يرتكن بعد ذلك على هذا كله ويستريح، ويأمر وينهي وسوف يُطاع لا محالة، أو على الأقل أن يعود إلى القيروان موطنه

وطلابه ومكانته، والرفاهية التي حُرم منها طوال هذه السنوات، ولكن ما فعله الشيخ كان عجيبًا والله.

فقد تحرك مجاهدًا هنا وهناك ولا يخشى الموت بل يتمناه، ويرجو الشهادة في سبيله، ساعيًا بكل جد واجتهاد لنشر دين الله تعالى في ربوع الأرض، بل وتساقطت أمامه الإمارات والقبائل الصغيرة والمتناثرة، واتسعت رقعة المرابطين، ودخل في سلطانها الآلاف من الناس.

وفي مثال لحسن الختام وبعد قليل من دخول قبيلة لمتونة في جماعة المرابطين يستشهد زعيمهم يحيى بن عمر اللمتوني في إحدى الغزوات ثم يتولى من بعد أخوه الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني، الذي دخل مع الشيخ ابن ياسين بكل قوة وحماسة منذ البداية، وبدأ أمر المرابطين يقوى ويقوى وتتزايد أعدادهم بشكل منقطع النظير، بل ويصلون إلى أماكن أوسع حول المنطقة التي كانوا فيها في شمال السنغال إلى جنوب موريتانيا، وأدخلوا معهم جدالة فأصبحت جدالة ولمتونة - وهما القبيلتان المتواجدتان في شمال السنغال وجنوب موريتانيا - في سيطرة كاملة على المنطقة تحت قيادة جماعة المرابطين، ولكن تحدث حرب تسمى

حرب برغواطة مع من كان على غير ملة الإسلام، استشهد في هذه الحرب الشيخ المجاهد البطل الشيخ عبد الله بن ياسين بعد أن أمضى أحد عشر عامًا في تربية الرجال على الدين والجهاد في سبيل الله تعالى[1].

تُوفي - رحمه الله- ولكنه ترك وراءه شخصيات عظيمة على رأسها يوسف بن تاشفين الذي توسعت الدولة على يده حتى صارت يهابها كل من كان قريبًا وبعيدًا بل لمجرد التلويح باسمها فقط، يفك أسر المسلمين ويرفع الحصار عنهم كما حدث مع ملوك الطوائف والمعتمد على الله بن عباد، فإلى هذه الدرجة أصبحت ذات قوة ومهابة ويخشاها الصليبيون في كل مكان ويستقوى بها المسلمون؟! فرحم الله الرجل الذي جاء وحيدًا حتى صار دولة.

وقفة مهمة

كثير منا الآن عندما يرى حال الأمة الإسلامية يغط في حزن شديد وهم يعتريه ولا يدري ماذا يفعل لأمته إذ أنه رجل واحد، فما الذي

---

(1) قصة الأندلس|راغب السرجاني| ص 476، 477 بتصرف.

سوف يقدمه لأمة عظيمة كبيرة اسمها الأمة الإسلامية؟ وما الفارق الذي سوف يُحدثه هو عندما يفعل شيئًا؟

أقول لك هذه هي فائدة التاريخ بصفة عامة والتاريخ الإسلامي بصفة خاصة، إذ به نرى عكس ما يصدِّره لنا الإعلام المدعوم من الخارج والذي يرسخ فكرة أننا أمة هزيلة مكلومة ضعيفة لا تقوى على شيء، ولن ولم تتحرك فينا همم القدامى، وأن الإنجازات التي تحققت، إنما هي درب من التاريخ ولا محل لها الآن من عودة، وأن سيادة العالم للغرب النصراني واليهودي وليس للمسلمين قدم فيه.

فما رأيناه من تحرك شخص واحد جاء من أقصى البلاد يسعى بجد واجتهاد وحيدًا ترعاه معية ربه سبحانه وتعالى متسلحًا بتقوى الله والعلم الشرعي، وهوجم وطُورد حتى كاد أن يُقتل ولم يعتره اليأس لأنه يعلم أن همّ الدين أكبر من أي همّ في هذه الدنيا مهما كبر، فصبر واستعان بالله وارتكن بالقرب من السنغال، وبدأ يعلِّم دين الله بمجموعة صغيرة سرعان ما كبرت وكبرت حتى صارت ألفًا، وما إن

بدأ التحرك حتى صار أعدادًا كبرى وجنود أشاوس لا يشق لهم غبار، وبدأ يتحرك هنا وهناك ويفتح القلوب والبلاد حتى صار أعدادًا أكبر وأكبر إلى أن أصبح دولة، بعد ذلك سُميت بدولة المرابطين، تلك الدولة التي دافعت عن بيضة الإسلام في الأندلس ودخل على يديها أعداد لا تُعد ولا تُحصى في دين الله تعالى، وكل هذا في ميزان حسنات ذلك الشيخ الجليل، بل وكل هذا بفضل الله ثم تحرك رجل واحد مسلم على حق يعلم دين الله حق العلم، تحرك وحده قاطعًا البلاد والصحراء حتى صار دولة، فهنا لا يمكن بأي حال من الأحوال لرجل مسلم أن يقول إنه لن يُحدث فارقًا، فهذا من تثبيط الشيطان وأعداء الإسلام له، بل تستطيع أن تُحدث فارقًا وتغييرًا، بل وتغييرًا كبيرًا فوق ما نتخيل جميعًا، ولكن هذا التحرك وهذا التغيير لا بد أن يكون له ضوابط وشروط.

وأول هذه الضوابط وتلك الشروط، أن يكون من يتحرك على عقيدة صحيحة، حتى لا يفسد من حيث أراد الإصلاح، ثم بعلم قويم حتى ينشر علمه ودين الله في ربوع الأرض وأينما تحرك، وحتى يكون

التغيير بأسس علمية وشرعية في آن واحد، ثم يكون مرجعه دائمًا وأبدًا في شتى تحركاته هو كتاب الله وسنة نبيه، ويحافظ دائمًا على معية الله معه وسوف يجد أثرًا لن يتخيله في حياته وفي مماته؛ ولذلك نهيب بكل مسلم أن يتعلم عقيدته ويعرف دينه وتاريخه ثم يتحرك ولو بإصلاح نفسه أولًا، ثم أهل بيته، ثم جيرانه ومن حوله، ثم يوسع دائرته التي ستكبر تلقائيًا، ولكن لا بد من التحرك، فالأمة تحتاجنا الآن.

❋ ❋ ❋

الفهرس

إهداء 5

مقدمة 6

أحمد بن حنبل 10

العز بن عبد السلام 53

الشيخ آق شمس الدين 73

الغازي محمد الداغستاني 84

الإمام شامل 94

سعيد بن المسيب 109

أسد بن الفرات 126

عبد الله بن ياسين 146

❋ ❋ ❋

قائمة بمؤلفات الكاتب

1- علماء زعماء.

2- شخصيات حق علينا معرفتها في ظلال الدولة العثمانية (من الترحال إلى الخلافة).

3- الدولة العثمانية من الخلافة إلى الانقلاب.

4- شخصيات حق علينا معرفتها في ظلال الدولة السلجوقية.

5- السلطان الفاتح (مؤسس الإمبراطورية العثمانية).

6- شخصيات حق علينا معرفتها في ظلال الدولة العباسية.

7- شخصيات حق علينا معرفتها في ظلال الدولة الأموية.

8- شخصيات أندلسية.

9- وقفات مع شخصيات عثمانية.

10- السيرة النبوية.

11- شخصيات في ظلال السيرة النبوية.

12- قصة الخلافة.

13- شخصيات في ظلال القرآن.

14- علماء لهم بصمة في التاريخ.

15- كتاب المقدمة.

16- وقائع وأحداث غيرت مجرى التاريخ.

17- اعرف عدوك.

18- دعوة للتعارف.

19- أفكار هدامة.

20- معارك إسلامية.

21- عقبات في بناء الأمة.

22- قضايا معاصرة وقنابل موقوتة.

23- فاتخذوهن قدوة.

24- كشف الستار عن أقزام رُفعَ قدرُهُم في التاريخ.

25- لنحطم أصنام القومية.

26- الحجاب من وجهة نظر أخرى.

27- الضريبة في ميزان التشريع الإسلامي.

28- مواقف من حياة الصحابة.

29- وقفات مع ردود بليغة في التاريخ.

30- بني فتح (رواية).

31- 31 من أذار (رواية).

❋ ❋ ❋

للتواصل مع الكاتب

Mostafa.zaki89@yahoo.com